القيامة الكبرى

مشاهد ووقائع ، دروس وعبر

(دراسة قرآنية)

بقلم

د . عبد الرحمن محمد علي عويس

أستاذ التفسير المساعد بكلية أصول الدين جامعة الأزهر بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

الحمد لله وكفي وصلاة وسلاماً على عباده الذين اصطفي وبعد:

فلقد جعل الحق سبحانه الإيمان بيوم البعث ركناً من أركان الإيمان التي لا يتم إيمان المرء إلا إذا آمن به وصدق بمجيئه قولاً وعملاً واعتقاداً وسلوكاً حيث يقول الحق سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٦-٧].

ومن هنا يعتبر يوم القيامة صمام أمان للبشرية جمعاء، يحول بينهم وبين الكثير من الموبقات والمهلكات، فلولاه لانفلت زمام البشرية، وأضحت الدنيا غابة، وصار الخلق فيها وحوشاً، يغلب من يمكنه الغلبة، ويظلم من لديه القدرة على الظلم. والويل ساعتها للمظلوم، والهلاك للضعيف ومن لا حول له ولا طول.

ولقد تحدث القرآن عن يوم القيامة حديثاً مفصلاً ما ترك صغيرة ولا كبيرة تحدث في هذا اليوم إلا وفصلها، ولا شاردة أو واردة إلا وأخبرنا عنها سبحانه وتعالى في كتابه، وذلك حتى لا تبقى لأحد من الناس عند الله حجة كما قال سبحانه: ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[النساء: ١٦٥].

وكما أخبرنا كذلك: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الأنفال: ٤٢].

وفي مؤلف سابق تحدثت عن الموت أو القيامة الصغرى، وبينت من خلاله رحلة العبد مع الموت، والطريق الذي يمشي فيه العبد وحده للقاء ربه سبحانه

وتعالى، وبينت من خلاله أن الموت هو القيامة الصغرى، وأن من مات فقد قامت قيامته، وتحدثت كذلك عن أشراط الساعة وعلاماتها الصغرى والكبرى كذلك، وبينت أن الكثير من هذه العلامات قد تحقق كما أخبرنا به القرآن وحدثنا عنه الرسول ﷺ وبعضها في طريق الوقوع، وبعضها لما يقع بعد، وإن كنا على يقين بمجيئه ووقوعه، فيكفي أن يخبرنا به المولى سبحانه حتى نوقن بأنه آت لا محالة.

وفي هذا الكتاب حاولت جاهداً أن أوضح المشاهد والمواقف في رحلة الخلود وهي رحلة حتماً لابد أن يقوم بها العباد جميعاً وأن يجتازوا عقباتها، ويمروا بكل مشاهدها ومواقفها، مختارين أو مكرهين على ذلك، وينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى* وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى* قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا* قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى* وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦].

ولقد حاولت في هذا الكتاب أن أبين أحداث القيامة ومواقفها، وأن أوضحها على حسب وقوعها وتسلسلها، وكأنها رحلة يمر بها العبد في طريقه إلى دار الخلود، وهي رحلة طويلة فيها عقباتها، ومراحلها المتتابعة، وفيها كذلك أمور عظام وأحداث جسام تشيب من هولها رؤوس الولدان. وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد.

كذلك حاولت جاهداً ألا أتعدى نطاق آيات القرآن أو أحاديث رسول الله ﷺ التي تعالج هذه القضية فكانت آيات القرآن والحديث النبوي الشريف هي الركيزة التي اعتمدت عليها في كتابة هذا البحث، وكان عملي في مواضع كثيرة شرحاً لمضمون آية أو بياناً لمعنى حديث وفي بعض المواضع يكفي في معالجة الحدث أن

أذكر فيه نص آية من كتاب الله تعالى، أو حديث عن رسول الله ﷺ.

حاولت جاهداً كذلك أن أعالج الأحداث معالجة موضوعية وأن يكون الأسلوب سهلاً واضحاً مفهوماً يعالج الحدث بلا تطويل ممل أو إيجاز مخل، وإنما ذكرته بأسلوب أظن بأن فيه إلماماً بكل الأحداث حتى ترسم الكلمات للقارئ العادي صورة واضحة متكاملة لأحداث يوم القيامة ومشاهدها ومواقفها، دون الدخول في تفريعات أو الخوض في تفصيلات لا يحتاج إليها القارئ، ولا تفيده كثيراً في هذا الأمر.

ومن الأمور المهمة كذلك ونحن نتحدث عن يوم القيامة يجب أن نوقن بأن يوم القيامة غيب، وأن أحداثه ووقائعه ومشاهده كل هذه أمور من عالم الغيب، فينبغي ونحن نتحدث عنها ألا نحاول فهم هذه الأحداث بمقاييس بشرية أو قوانين دنيوية، وإنما هناك أمور تعجز عندها قدرة العقل البشري عن تصورها وإدراكها على حقيقتها فينبغي ألا يحاول الإنسان فهمها بعلم البشر أو بما تعارفوا عليه في دنياهم من نواميس وقوانين وسنن فهي خارج نطاق حواسهم وفوق إمكانات عقولهم.

فلو أننا استطعنا فهم وإدراك ما نحن بصدده من حدث فبها ونعمت، ولكن إن عجزت عقولنا عن فهم طبيعة هذا الحدث فلا نحاول أن نؤوله تأويلاً فيه لي للحقائق أو إخراج للأمر عن مضمونه وحقيقته، وإنما نؤمن به كما جاء ونترك أمر حقيقته إلى علم الله سبحانه وتعالى، خاصة وأن النواميس والقوانين والسنن التي يسير عليها الناس في يوم القيامة تختلف في كثير من الأحايين عن السنن التي يسير عليها الناس في حياتهم الدنيا وهذا ما يؤكده المولى سبحانه وتعالى في كتابه حيث يقول: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨].

حاولت كذلك أن أعيش مع فقه الحدث والموقف الذي يمر به العبد في رحلة الخلود هذه، ومدى تأثير علمه بما ينتظره هناك على واقعه الذي يعيشه في دنياه، خاصة وأن معايشة المرء لأحداث يوم القيامة كفيل كما ذكرنا من قبل بردع العباد عن كثير من التصرفات الخاطئة. وكفهم عن الحرمات وبعدهم عن الفواحش والموبقات.

من خلال البحث كذلك ظهر جلياً بأن الحق سبحانه لم يخلق عباده عبثاً ولن يتركهم سدى، وإنما خلقهم لهدف وغاية محددة وفي يوم القيامة، سيحاسبهم على مدى تحقيقهم لهذا الهدف، في دقة متناهية يحاسب فيها العباد على مثل الذرة والخردل حيث يقول الحق سبحانه: {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ* وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[الزلزلة:٧-٨]

وبعد فهذا جهد المقل فما كان فيه من صواب فمن الله وحده وله الفضل والمنة وما كان فيه من تقصير أو خطأ فمن نفسي والكمال لله وحده. والحمد لله أولاً وآخراً.

مدخل: في بيان جانب من أسماء يوم القيامة:

إن ليوم القيامة من الأسماء والأوصاف ما يتناسب وشدة الهول في هذا اليوم، فمن خلال تتبع الآيات التي تحدثت عن يوم القيامة سنجد الكثير من الأسماء والأوصاف التي تحدثت عن هذا اليوم، وكل اسم منها يعتبر وصفاً لحدث أو تصويراً لشدة الهول والكرب في هذا اليوم تلك التي تمثلت في كل ما يتعلق بأمر هذا اليوم، حتى في أسمائه وأوصافه فمن أسمائه:

١- يوم القيامة: وهي مصدر قام يقوم، ودخلها التأنيث للمبالغة، وسميت بذلك لما يقوم فيها من الأمور العظام التي بينتها النصوص. ومن ذلك قيام الناس لرب العالمين.

ولقد ورد هذا الاسم في سبعين آية من آيات الكتاب، كقوله تعالى: (اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ) [النساء: ٨٧].

٢- اليوم الآخر: كقوله تعالى: (وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ) [البقرة: ١٧٧]. وأحياناً يسميه بالآخرة أو الدار الآخرة، كقوله: (وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) [البقرة: ١٣٠]. وسمى ذلك اليوم باليوم الآخر، لأنه اليوم الذي لا يوم بعده.

٣- الساعة، قال تعالى: (وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)[الحجر: ٨٥]، وقال: (إِنَّ السَّاعَةَ ءاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا) [طه: ١٥]، وقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) [الحج: ١]. قال القرطبي: " والساعة كلمة يعبر بها في العربية عن جزء من الزمان غير محدود، وفي العرف على جزء من أربعة وعشرين جزءاً من يوم وليلة، اللذين هما أصل الأزمنة.. وحقيقة الإطلاق فيها أن الساعة بالألف واللام عبارة في الحقيقة عن الوقت الذي أنت فيه، وهو المسمى

بالآن، وسميت به القيامة إما لقربها، فإن كل آت قريب. وإما أن تكون سميت بها تنبيهاً على ما فيها من الكائنات العظام التي تذهل العقول"[١].

٤- يوم البعث: قال ابن منظور: " البعث: الإحياء من الله تعالى للموتى، وبعث الموتى نشرهم ليوم البعث[٢] ". قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ...) [الحج: ٥]، وقال: (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يومُ البَعثِ) [الروم: ٥٦].

٥- يوم الخروج: قال تعالى: (يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ) [ق: ٤٢] وقال: (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ) [المعارج: ٤٣] وقال: (ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ) [الروم: ٢٥].سمي بذلك لأن العباد يخرجون فيه من قبورهم عندما ينفخ في الصور.

٦- القارعة: سميت بذلك لأنها تقرع القلوب بأهوالها. يقال: قد أصابتهم قوارع الدهر، أي: أهواله وشدائده[٣].قال تعالى: (الْقَارِعَةُ - مَا الْقَارِعَةُ - وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ) [القارعة: ١-٣] وقال: (كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ) [الحاقة: ٨].

٧- يوم الفصل: قال تعالى: (هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ)[الصافات: ٢١]. وقال: (هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ) [المرسلات: ٣٨]. وقال: (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا)[النبأ: ١٧].سمي بذلك لأن الله يفصل فيه بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون، وفيما كانوا فيه يختصمون، قال تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)[السجدة: ٢٥].

---

(١)التذكرة للقرطبي: ٢١٦.

(٢)لسان العرب: مادة: (ب ع ث) (٢٣٠/١).

(٣)التذكرة للقرطبي: ٢٠٩.

٨- يوم الدين: والدين في لغة العرب:يطلق علي معانَ منها الجزاء والحساب. سمي بذلك لأن الله يجزي العباد ويحاسبهم في ذلك اليوم. قال تعالى: (وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ - يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ - وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ - وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ - ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ - يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) [الانفطار: ١٤-١٩].

٩- الصاخة: شدة صوت ذي النطق، يقال: صخ يصخ صخا فهو صاخ. قال تعالى: ﴿فإذا جاءت الصاخة﴾ [عبس/٣٣]، وهي عبارة عن القيامة حسب المشار إليه بقوله: ﴿يوم ينفخ في الصور﴾ [الأنعام/٧٣]، وقد قلب عنه: أصاخ يصيخ.

قال القرطبي: " قال عكرمة: الصاخة النفخة الأولى " والطامة النفخة الثانية. قال الطبري: أحسبه من صخ فلان فلاناً إذا أصمه. قال ابن العربي: الصاخة التي تورث الصمم، وإنها المسمعة، وهذا من بديع الفصاحة [١].

وقال ابن كثير: " قال البغوي: الصاخّة يعني صيحة يوم القيامة، سميت بذلك لأنها تصخُّ الأسماع، أي: تبالغ في إسماعها حتى تكاد تصمها "[٢].

١٠- الطامة الكبرى: قال تعالى:(فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى)[النازعات: ٣٤].سميت بذلك لأنها تطم على كل أمر هائل مفظع، كما قال تعالى: (وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ)[القمر: ٤٦].قال القرطبي: " الطامَّة الغالبة. من قولك: طمَّ الشيء إذا علا وغلب. ولما كانت تغلب كل شيء كان لها هذا الاسم حقيقة دون كل شيء[٣]".

١١- يوم الحسرة: والحسرة الغم على ما فاته والندم عليه، كأنه انحسر عنه

(١)تذكرة القرطبي: ٢٢٧.
(٢)تفسير ابن كثير: (٢١٧/٧).
(٣)تذكرة القرطبي: ٢٢٧.

الجهل الذي حمله على ما ارتكبه، أو انحسر قواه من فرط غم، أو أدركه إعياء من تدارك ما فرط منه.قال تعالى: (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ)[مريم: ٣٩].سمي بذلك لشدة تحسر العباد في ذلك اليوم وتندمهم. أما الكفار فلعدم إيمانهم (حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا) [الأنعام:٣١] ويتحسر المؤمنون في ذلك اليوم لعدم استزادتهم من أعمال البر والتقوى.

١٢- الغاشية: قال تعالى: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)[الغاشية: ١]، سميت بذلك لأنها تغشى الناس بأفزاعها وتغمهم، ومن معانيها أن الكفار تغشاهم النار، وتحيط بهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم، كما قال تعالى: (يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ) [العنكبوت: ٥٥]. وقال: (لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ)[الأعراف: ٤١]. ويقال: غشيه غشاوة وغشاء: أتاه إتيان ما قد غشيه، أي: ستره. والغشاوة: ما يغطى به الشيء، يقال: غشيه وتغشاه، وغشيته، والغاشية: كل ما يغطي الشيء كغاشية السرج، وقوله: ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾[الغاشية/١]، كناية عن القيامة.

١٣- الواقعة: قال تعالى: (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ)[الواقعة: ١]، قال ابن كثير: "سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها"[(١)]. وأصل وقع في لغة العرب كان ووجد. والوقوع: ثبوت الشيء وسقوطه. يقال: وقع الطائر وقوعا، والواقعة لا تقال إلا في الشدة والمكروه، وأكثر ما جاء في القرآن من لفظ (وقع) جاء في العذاب والشدائد نحو: ﴿إذا وقعت الواقعة* ليس لوقعتها كاذبة﴾ [الواقعة/١ - ٢]، وقال: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ [المعارج/١]، ﴿فيومئذ وقعت الواقعة﴾ [الحاقة/١٥].

(١)تفسير ابن كثير: ٥٠٧/٦.

١٤- يوم الآزفة: قال تعالى: (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ)[غافر: ١٨] سميت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى:(أَزِفَتْ الْآزِفَةُ* لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ)[النجم: ٥٧-٥٨]. والساعة قريبة جداً. وكل آت فهو قريب وإن بَعُد مداه.

١٥-الحاقة: قال تعالى: (الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ) [الحاقة: ١-٢]، سميت بذلك – كما يقول ابن كثير – لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد[١].

١٦- يوم التغابن: قال تعالى: (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ)[التغابن: ٩].سمي بذلك لأن أهل الجنة يغبنون أهل النار، إذ يدخل هؤلاء الجنة، فيأخذون ما أعد الله لهم، ويرثون نصيب الكفار من الجنة. فالغبن: أن تبخس صاحبك في معاملة بينك وبينه بضرب من الإخفاء.

١٧-الرَّاجِفَةُ- الرجف: الاضطراب الشديد، يقال: رجفت الأرض ورجف البحر، وبحر رجاف. قال تعالى: ﴿يوم ترجف الراجفة﴾ [النازعات/٦].

١٨-الزَّلْزَلَةِ والتزلزل: الاضطراب، وتكرير حروف لفظه تنبيه على تكرير معنى الزلل فيه، قال: ﴿إذا زلزت الأرض زلزالها﴾ [الزلزلة/١]، وقال: ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ [الحج/ ١].

هذه مجموعة من أشهر أسماء يوم القيامة، وقد أورد بعض العلماء أسماءً أخرى غير ما ذكرناه، وهذه الأسماء أخذوها بطريق الاشتقاق بما ورد منصوصاً، فقد سموه بيوم الصدر أخذاً من قوله تعالى: (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا)[الزلزلة: ٦]، ويوم الجدال أخذاً من قوله تعالى: (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا) [النحل: ١١١].

---

(١)تفسير ابن كثير: (٩٩/٧).

وسموه بأسماء الأوصاف التي وصف الله بها ذلك اليوم، فقالوا من أسمائه: يوم عسير. يوم عظيم. يوم مشهود. يوم عبوس قمطرير. ويوم عقيم. يوم الخلود. يوم الجمع. يوم الوعيد. يوم الحساب. يوم المآب. يوم العرض. يوم الخافضة يوم التلاق- يوم التناد.يوم الرافعة. يوم القصاص. يوم الجزاء. يوم الناقور. يوم التفرق. يوم الصدع. يوم البعثرة. يوم الندامة. يوم الفرار. ويوم الميقات. والمرصاد.

وقد يضيف إليها بعض أهل العلم أسماء أخرى، وقد يسمى الاسم بما يقاربه ويماثله، قال القرطبي: " ولا يمتنع أن تسمى بأسماء غير ما ذكر بحسب الأحوال الكائنة فيه من الازدحام والتضايق واختلاف الأقدام، والخزي، والهوان، والذل، والافتقار، والصَّغار، والانكسار، إلى غير ذلك من الأسماء[1]".

السر في كثرة أسمائه: يقول القرطبي: " وكل ما عظم شأنه تعددت صفاته، وكثرت أسماؤه، وهذا مهيع كلام العرب، ألا ترى أن السيف لما عظم عندهم موضعه، وتأكد نفعه لديهم وموقعه، جمعوا له خمسمائة اسم، وله نظائر. فالقيامة لما عظم أمرها، وكثرت أهوالها، سماها الله تعالى في كتابه بأسماء عديدة، ووصفها بأوصاف كثيرة "[2].

بداية الأحداث: النفخ في الصور:

لقد بينا في كتاب سابق أشراط الساعة وتحدثنا عن علاماتها الصغرى والكبرى، ووضحنا بأن هذه العلامات تتوالى وتتتابع منذ بعثة رسول الله ﷺ وأن مجيء العلامات الكبرى ينبئ بدنو يوم القيامة وقربه، وستكون الساعة حينئذ

(١)التذكرة: ٢٣٣.

(٢)التذكرة: ٢١٤.

كالحامل المتم لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادتها، فإذا ما توالت هذه العلامات وتتابعت يوشك الأمر أن يصل إلى نهايته، وتوشك أيام الدنيا على الفناء والزوال، وتلوح في الأفق علامات القيامة بأحداثها الكبرى، وحينئذ تبدأ أحداث الساعة الكبرى، وتبدأ وقائع رحلة الخلود، وأول هذه الأحداث النفخ في الصور:

النفخ في الصور:

لقد استخلف الحق سبحانه آدم وذريته في الأرض، وقدر لهم فيها آجالاً محدودة وأعمالاً مقدورة، وأرزاقاً معلومة، وتتابع الأجيال جيلاً بعد جيل، إلى أجل محدد ووقت معلوم يشاء الحق فيه أن تنتهي دورة الحياة في هذا الكون، والتي قدر الحق سبحانه أن تكون هذه الدورة للابتلاء والعمل والملكوت لتبدأ دورة أخرى للحساب والجزاء ألا وهي يوم القيامة، ولقد جعل الحق سبحانه لها أموراً ترتبط بها وأسباباً تؤذن بمجيئها ووقوعها أما ما يرتبط بيوم القيامة من أمور منها:

-أن توقيت هذا اليوم وأجله المحدد غيب لا يعلمه إلا الحق سبحانه، لم يطلع الحق عليه ملكاً مقرباً أو بني مرسلاً، وإنما أخفى أمره عن جميع خلقه حتى يُفاجأ الخلق جميعاً بوقوعه. وهذا ما أكدت عليه آيات كثيرة من كتاب الله سبحانه يقول الحق سبحانه: {يَسْأَلُونَكَ عَنْ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}[الأعراف:١٨٧].

-أنها حينما تأتي تقع كلمح البصر أو هو أقرب {وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [النحل:٧٧].

-أن الحق سبحانه قادر على أن يُفني الوجود كله في لمح البصر والأمر كما

قال سبحانه {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[يس:٨٢]. ولكن أراد الحق سبحانه أن يكون لقيام الساعة أسباب ترتبط بها وتؤذن بوقوعها وبداية أحداثها وعلى رأسها النفخ في الصور إنها أول أحداث الساعة الكبرى فما المراد بالصور؟ وكيف يتم النفخ فيه؟ وما الذي يجرى على إثر ذلك:

الصور: في لغة العرب القَرْن، وقد سُئل الرسول ﷺ عن الصور، ففسره بما تعرفه العرب من كلامها، ففي سنن الترمذي وسنن أبي داود، وسنن ابن حبان، ومسند أحمد، ومستدرك الحاكم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: " ما الصور؟ قال: الصور قرن يُنفخ فيه"(١).

هذا ما نعرفه عن الصور فهو ما تعارف عليه العرب في لغتهم أنه القرن، أو البوق الذي ينفخ فيه فتصدر عنه أصوات مختلفة، فهو ما ينفخ فيه في يوم القيامة، ولكن مما لا شك فيه أن هذا الصور يختلف اختلافاً جذرياً عن كل ما تعارف عليه الناس في أمر البوق، فنحن لا نعلم المادة التي خُلق منها، أو الموضع الذي يستقر فيه الآن، كل ما نعلمه عنه أن النفخة فيه تبلغ من الشدة والقوة درجة لا حدود لها، حتى إنها كفيلة بصعق وإفناء وإهلاك كل حي موجود في هذا الكون وفي ملكوت السماوات والأرض، وأن النفخة الثانية كفيلة بإحيائهم من رقدتهم مرة أخرى. وفيما يلي أبين كيف يتم النفخ في الصور وما هي الآثار والنتائج والمترتبة على ذلك:

الآيات والأحاديث التي تثبت أمر النفخ في الصور:

لقد تناولت آيات كثيرة في كتاب الله تعالى قضية النفخ في الصور فتارة عبرت عن ذلك بالنفخ كما في قوله تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي

(١)قال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وقال الترمذي فيه: حديث حسن صحيح.ولفظها لسنن أبي داوود باب في ذكر البعث ج ٢

السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ}[الزمر:٦٨]. {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً}[الكهف:٩٩].{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنْ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ}[يس:٥١]. {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ. وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً. فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ. وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ. وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ. يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣-١٨].﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا. وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَابًا. وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾[النبأ: ١٨-٢٠].

وتارة أخرى عبرت عن ذلك بالصيحة:{مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ* فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ* وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنْ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ* قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ* إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ} [يس:٤٩-٥٣].

وتارة أخرى صورتها بالراجفة{يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ* تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ* قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ* أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ}[النازعات:٦-٩].

وفي سنن الترمذي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:كَيْفَ أَنْعَمُ؟ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، وَاسْتَمَعَ الْإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ.فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لَهُمْ: قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا)(١).

قال ابن حجر العسقلاني: " اشتهر أن صاحب الصور إسرافيل عليه السلام،

(١) سنن الترمذي. كتاب صفة القيامة والرقائق والورع. باب:ما جاء في شأن الصور

ونقل فيه الحليمي الإجماع، ووقع التصريح به في حديث وهب ابن منبه، وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي، وفي حديث أبي هريرة عند ابن مردويه، وكذا في حديث الصور الطويل "[1]. وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن صاحب الصور مستعد دائماً للنفخ فيه منذ أن خلقه الله تعالى، ففي مستدرك الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " إن طَرْف صاحب الصور منذ وُكِّل به مستعد ينظر نحو العرش، مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طَرْفه، كأن عينيه كوكبان دُرِّيان " قال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي[2].

نخلص من هذه النصوص إلى ما يلي:

- أن النفخ في الصور إيذان بنهاية الحياة الدنيا وبداية الحياة الآخرة.

-أن هناك ملكاً موكلاً بالنفخ في الصور وأنه قد أخذ وضع الاستعداد للنفخ وهذا إن دل على أمر فإنما يدل على دنو وقرب الساعة.

-أن اختلاف الآيات في التعبير عن ذلك بالنفخة أو الصيحة أو الرجفة أو غير ذلك، كل ذلك تصوير لأمر واحد ألا وهو بداية أحداث القيامة فهي تبدأ بنفخة في الصور هذه النفخة ينبعث منها صوت هائل بمثابة الصيحة المفزعة التي تصعق كل حي، ومن آثارها ونتائجها تلكم الرجفة التي يرتجف ويضطرب منها كل ما في السماوات والأرض. ولكن هل هما نفختان أم نفخة واحدة خلاف بين العلماء بيانه في الفقرة التالية:

هل هما نفختان أو أكثر:

إن صريح آيات القرآن ذكرت أنهما نفختان نفخة الصعق ونفخة الإفاقة

(١)فتح الباري: (٣٦٨/١١).

(٢)سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٦٥/٣)، ورقمه: ١٠٧٨.

والبعث، ولقد نصت آيات سورة الزمر على ذلك: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ}[الزمر:٦٨].

وسورة النازعات نصت على ذلك حينما بينت بأن الراجفة تتبعها الرادفة:{يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧)}[النازعات]. والرادفة هي التالية للأولى.

وفي سورة يس وصفت الأولى بالصيحة وعبرت عن الثانية بالنفخ {مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ* فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ *وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنْ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ}[يس: ٤٩-٥١]

وقد جاءت الأحاديث النبوية مصرحة بالنفختين، ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " ما بين النفختين أربعون ". قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت "[1].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: " ثم ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً، ورفع ليتاً[2]، فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله، قال: فيصعق، ويصعق الناس، ثم يرسل الله – أو قال: ينزل الله مطراً، كأنه الطَّلُّ، أو الظِّلُّ، (نعمان[3] الشاك) فتنبت منه أجساد

(١)رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، تفسير سورة الزمر، فتح الباري: (٥٥١/١١) ورواه مسلم في صحيحه: كتاب الفتن واشراط الساعة باب ما بين نفختين (٢٢٧٠/٤)، ورقمه ٢٩٥٥.

(٢)الليت: صفحة العنق، وإصغاؤه: إمالته.

(٣)هو نعمان بن سالم أحد رواة هذا الحديث.

الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون"[١].

وأخرج البيهقي بسند قوي عن ابن مسعود موقوفاً: " ثم يقوم ملك الصور بين السماء والأرض، فينفخ فيه، والصور قرن، فلا يبقى خلق في السماوات ولا في الأرض إلا مات إلا من شاء ربك، ثم يكون بين النفختين ما شاء الله أن يكون" [٢].

كل هذا يدل دلالة قاطعة على أنهما نفختان، وعلى ذلك رأي جمهور العلماء، ولكن خالفهم في ذلك فريق من العلماء وقال: بأنها ثلاث نفخات نفخة الفزع ونفخة الصعق ونفقة الإفاقة والبعث: وممن ذهب هذا المذهب ابن العربي[٣]، وابن تيمية[٤]، وابن كثير[٥]، والسفاريني[٦]، وحجة من ذهب هذا المذهب أن الله ذكر نفخة الفزع في قوله: (وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاء اللَّهُ) [النمل: ٨٧].

كما احتجوا ببعض الأحاديث التي نصت على أن النفخات ثلاث، كحديث الصور، وهو حديث طويل، أخرجه الطبري، وفيه: " ثم ينفخ في الصور ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة القيام لرب العالمين[٧]".

أما استدلالهم بالآية التي تذكر نفخة الفزع فليست صريحة على أن هذه نفخة ثالثة، إذ لا يلزم من ذكر الحق تبارك وتعالى للفزع الذي يصيب من في السماوات والأرض عند النفخ في الصور أن تجعل هذه نفخة مستقلة، فالنفخة الأولى تفزع

(١)رواه مسلم:(٤/٢٢٥٨)،ورقمه: ٢٩٤٠.كتاب الفتن وأشراط الساعة باب خروج الرجال

(٢)فتح الباري: (١١/٣٧٠).

(٣)فتاوي شيخ الإسلام: (٤/٢٦٠).

(٤)فتح الباري: (١١/٣٦٩) تذكرة القرطبي: ص ١٨٤.

(٥)النهاية لابن كثير: (١/٢٥٣).

(٦)لوامع الأنوار البهية: (٢/١٦١).

(٧)فتح الباري:(١١/٣٦٩).

الأحياء قبل صعقهم، والنفخة الثانية تفزع الناس عند بعثهم.

يقول ابن حجر رحمه الله تعالى: " ولا يلزم من مغايرة الصعق الفزع أن لا يحصلا معاً من النفخة الأولى"(١)، وجاء في تذكرة القرطبي: " ونفخة الفزع هي نفخة الصعق، لأن الأمرين لازمان لها، أي: فزعوا فزعاً ماتوا منه "(٢).

أما حديث الصور فهو حديث ضعيف مضطرب كما يقول الحجة في علم الحديث ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى، ونقل تضعيفه عن البيهقي(٣).

النفخة الأولى وآثارها ونتائجها:

إذا ما أذن المولى سبحانه ليوم القيامة أن تبدأ أحداثه فإنه يأمر الملك الموكل بالصور فينفخ فيه مرة، وهذه النفخة من شدتها ومن هولها كفيلة بأن تصعق كل حي موجود في عالم السماوات والأرض، حتى لا يبقى إلا الملك الديان سبحانه وتعالى يقول الحق سبحانه:{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ}[الزمر:٦٨].

لقد كانت هذه النفخة كفيلة بهلاك كل شيء وفناء كل شيء ولكن هل يعم الفناء كل شيء؟ إن الآية هنا قد بينت بأن الصعق قد شمل كل شيء إلا ما شاء الله، وعلى ذلك فهناك ممن خلق الله من لا يشمله الصعق، ونرى آيات أخرى تبين بأن الهلاك يعم كل شيء {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[القصص:٨٨] وفي آية أخرى {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ* وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ (٢٧)}[الرحمن:٢٦-٢٧].

---

(١)فتح الباري:(٣٦٩/١١).

(٢)تذكرة القرطبي: ١٨٤.

(٣)فتح الباري: (٣٦٩/١١).

فهل يعم الفناء أرجاء الملكوت كله من الإنس والجن والملائكة والسماوات والأرض، وكل ما خلق الله سبحانه حتى لا يبقى إلا وجه الملك الديان، أم إن هناك مما خلق الله سبحانه ما لا يشمله الفناء اختلفت آراء العلماء في ذلك:

١- فذهب ابن حزم إلى أنهم جميع الملائكة، لأن الملائكة في اعتقاده أرواح لا أجساد فيها، فلا يموتون أصلاً[١].

وهذا الذي ذهب إليه من أن الملائكة لا يموتون لا يُسلم له، فالملائكة خلق من خلق الله تبارك وتعالى، وهم عبيد مربوبون مقهورون، خلقهم، وهو قادر على إماتتهم وإحيائهم، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ من غير وجه، وعن غير واحد من الصحابة أنه قال: " إن الله إذا تكلم بالوحي أخذ الملائكة منه مثل الغشى"، وفي رواية: " إذا سمعت الملائكة كلامه صعقوا " فأخبر في هذا الحديث أنهم يصعقون صعق الغشي، فإذا جاز عليهم صعق الغشي، جاز عليهم صعق الموت"[٢].

٢- وذهب مقاتل وغيره إلى أنهم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت[٣].وأضاف إليه بعض أهل العلم حملة العرش[٤].

وصحة هذا متوقف على أحاديث رووها، وأهل العلم بالحديث لا يصححون مثلها[٥].

٣- وذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أن المراد بهم الذين في الجنة

---

(١)فتح الباري: (٦/٣٧١).
(٢)فتح الباري: (٦/٣٧١).
(٣)راجع مجموع فتاوي شيخ الإسلام: (٤/٢٦٠).
(٤)الروح لابن القيم: ص ٥٠، وفتح الباري: (٦/٣٧١).
(٥)راجع فتح الباري: (٦/٣٧١).

من الحور العين والولدان، وأضاف إليهم أبو إسحاق بن شاقلا من الحنابلة، والضحاك بن مزاحم: خزان الجنة والنار، وما فيها من الحيات والعقارب[١].

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: " وأما الاستثناء فهو متناول لما في الجنة من الحور العين، فإن الجنة ليس فيها موت "[٢].

٤- وقد جنح أبو العباس القرطبي صاحب «المفهم إلى شرح مسلم» إلى أن المراد بهم الأموات كلهم، لكونهم لا إحساس لهم، فلا يصعقون[٣].

وما ذهب إليه أبو العباس صحيح إذا فسرنا الصعق بالموت، فإن الإنسان يموت مرة واحدة، قال تعالى: (لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى) [الدخان: ٥٦].

وقد عقد ابن القيم في كتابه: «الروح» فصلاً بيَّن فيه أن أهل العلم قد اختلفوا في موت الأرواح عند النفخ في الصور.والذي رجحه ابن القيم أن موت الأرواح هو مفارقتها للأجساد، وخروجها منها، وردَّ قول الذين قالوا بفناء الأرواح وزوالها، لأن النصوص دلت على أن الأرواح تبقى في البرزخ معذبة أو منعمة [٤].

أما إذا فسرنا الصعق بالغشى، فإن الأرواح تصعق بهذا المعنى، ولا تكون داخلة فيمن استثنى الله تبارك وتعالى، فإن الإنسان قد يسمع أو يرى ما يفزعه، فيصعق، كما وقع لموسى عندما رأى الجبل قد زال من مكانه (وَخَرَّ موسَى صَعِقًا)[الأعراف: ١٤٣].

وقد جاء هذا المعنى صريحاً في بعض النصوص، ففي حديث أبي هريرة، عند

(١)الروح لابن القيم: ص ٥٠، وفتح الباري: (٣٧١/٦).
(٢)مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٢٦١/٤).
(٣)فتح الباري: (٣٧٠/٦).
(٤)الروح، لابن القيم: ص ٤٩.

البخاري قال: قال رسول الله ﷺ: " لا تخيروني على موسى، فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله " (١).

ورواه البخاري أيضاً عن أبي هريرة بلفظ: " إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الآخرة، فإذا أنا بموسى متعلق بالعرش، فلا أدري، أكذلك كان، أم بعد النفخة"(٢).

ورواه في موضع ثالث بلفظ: " فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن أفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله"(٣).وهذا الحديث صريح في أن الموتى يصعقون، فإذا كان رسول الله ﷺ وهو سيد المرسلين يصعق، فغيره أولى بالصعق.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الذي يصعق صعق غشى هم الشهداء دون غيرهم من الأموات، وأضاف إليهم آخرون الأنبياء.

والسر في قَصْر هذا على الشهداء والأنبياء – كما يقول شيخ القرطبي: أحمد بن عمر –: " أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين، وهذه صفة الأحياء في الدنيا، وإذا كان هذا حال الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى، مع أنه قد صح عن النبي ﷺ أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، وأن النبيﷺ قد اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس، وفي السماء، وخصوصاً بموسى، وقد أخبرنا النبي ﷺأن الله تبارك وتعالى يردُّ عليه روحه،

(١)صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى، فتح الباري: (٤٤١/٦).

(٢)صحيح البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة الزمر، فتح الباري: (٥٥١/٨).

(٣)صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب النفخ في الصور، فتح الباري: (٣٦٧/١١).

حتى يرد السلام على كل من يسلم عليه، إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أنهم غيبوا عنا بحيث لا ندركهم، وإن كانوا موجودين أحياء.. وإذا تقرر أنهم أحياء، فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق، صعق كل من في السماوات ومن في الأرض، إلا من شاء الله " [١].

وذهب إلى أن الشهداء والأنبياء يصعقون صعق غشي البيهقي فقال في صعق الأنبياء: " ووجهه عندي أنهم أحياء عند ربهم كالشهداء، فإذا نفخ في الصور النفخة الأولى صعقوا، ثم لا يكون ذلك موتاً في جميع معانيه، إلا في ذهاب الاستشعار، وقد جوز النبي ﷺ أن يكون موسى ممن استثنى الله، فإن كان منهم فإنه لا يذهب استشعاره في تلك الحالة بسبب ما وقع في صعقة الطور "[٢].

وبناء على هذا الفقه يكون الأنبياء والشهداء من الذين يصعقون، ولا يكونون داخلين في الاستثناء، وقد نقل عن ابن عباس وأبي هريرة وسعيد ابن جبير أن الأنبياء والشهداء من الذين استثناهم الله [٣]، وعزاه ابن حجر إلى البيهقي[٤]، فإن كان المراد استثناؤهم من الموت فإن هذا حق، وإن كان المراد استثناؤهم من الصعق الذي يصيب الأموات كما دل عليه حديث موسى فالأمر ليس كذلك.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الأولى بالمسلم التوقف في تعيين الذين استثناهم الله، لأنه لم يصح في ذلك نص يدل على المراد. قال القرطبي صاحب التذكرة: " قال شيخنا أبو العباس: والصحيح أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح، والكل محتمل"[٥].

---

(١)تذكرة القرطبي: ١٦٩.

(٢)فتح الباري: (٣٧١/١١).

(٣)الروح لابن القيم: ٥٠.

(٤)فتح الباري: (٣٧١/١١).

(٥)التذكرة: ص ١٦٧.

وقال ابن تيمية: " وأما الاستثناء فهو متناول لمن في الجنة من الحور العين، فإن الجنة ليس فيها موت، ومتناول لغيرهم، ولا يمكن الجزم بكل ما استثناه الله، فإن الله أطلق في كتابه.. والنبي ﷺ قد توقف في موسى، وهل هو داخل في الاستثناء فيمن استثناه الله أم لا؟

فإذا كان النبي ﷺ لم يُخْبَر بكل من استثنى الله، لم يمكننا نحن أن نجزم بذلك، وصار هذا مثل العلم بوقت الساعة وأعيان الأنبياء، وأمثال ذلك مما لم يخبر الله به، وهذا العلم لا ينال إلا بالخبر، والله أعلم "[1].

ونقل القرطبي عن الحليمي أنه أبى أن يكون المستثنون هم حملة العرش أو جبرائيل وميكائيل وملك الموت، أو الولدان والحور العين في الجنة، أو موسى، ثم بيَّن سر إنكاره لهذا فقال: " أما الأول، فإن حملة العرش ليسوا من سكان السماوات ولا الأرض، لأن العرش فوق السماوات كلها، فكيف يكون حملته في السماوات.

وأما جبرائيل وميكائيل وملك الموت فمن الصافين المسبحين حول العرش، وإذا كان العرش فوق السماوات، لم يكن الاصطفاف حوله في السماوات. وكذلك القول الثاني لأن الولدان والحور العين في الجنان، والجنان وإن كان بعضها أرفع من بعض، فإن جميعها فوق السماوات ودون العرش، وهي بانفرادها عالم مخلوق للبقاء، فلا شك أنها بمعزل عما خلق الله تعالى للفناء، وصَرْفُه إلى موسى لا وجه له، لأنه قد مات بالحقيقة، فلا يموت عند نفخ الصور ثانية "[2].

ورد قول الذين قالوا المستثنون هم الأموات: " لأن الاستثناء إنما يكون لمن يمكن دخوله في الجملة، فأما من لا يمكن دخوله في الجملة فيها، فلا معنى

(١)مجموع فتاوي شيخ الإسلام: (٢٦١/٤).
(٢)التذكرة للقرطبي: ص ١٦٨.

لاستثنائه منها، والذين ماتوا قبل نفخ الصور ليسوا بفرض أن يصعقوا فلا وجه لاستثنائهم "[1].

والذي اختاره أن الغشية التي تصيب موسى ليست هي الصعقة التي تهلك الناس وتميتهم، وإنما هي صعقة تصيب الناس في الموقف بعد البعث، على أحد الاحتمالين عنده.

ونقل القرطبي عن شيخه أحمد بن عمر أنه ذهب هذا المذهب، قال القرطبي: " قال شيخنا أحمد بن عمر: وظاهر حديث النبي ﷺ يدل على أن ذلك إنما هو بعد النفخة الثانية نفخة البعث، ونص القرآن يقتضي أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق، ولما كان هذا قال بعض العلماء: يحتمل أن يكون موسى عليه السلام ممن لم يمت من الأنبياء، وهذا باطل، بما تقدم من ذكر موته.

وقال القاضي عياض: يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع بعد النشر، حين تنشق السماوات والأرض فتستقل الأحاديث والآيات والله أعلم "[2].

وقد جزم ابن القيم رحمه الله تعالى بأن الصعقة التي تحدّث عنها الرسول ﷺ، هي صعقة تكون بعد البعث، وهي المراد بقوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾[3] [الطور: ٤٥]. والله أعلم بالصواب.

وبعد هذا العرض لآراء العلماء في قضية الصعق لا يبقى إلا أن نقول الله أعلم بالصواب في ذلك وذلك لأمور منها:

-أن آيات القرآن التي تناولت هذه القضية لم تأت لنا بخبر قاطع يمكننا من

(١)التذكرة: ص١٦٨.

(٢)التذكرة: ص١٦٨.

(٣)الروح: ص ٥٢.

خلاله الجزم بحقيقة ما يحدث في هذا الموقف فآية سورة الزمر بينت بأن الصعق يشمل ما في السماوات وما في الأرض إلا من شاء الله {فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ}[الزمر]. ويبقي بيان معنى الصعق هل هو بمعنى الموت أو بمعنى الفناء والهلاك، أو بمعنى عدم الإحساس والإدراك، والمستثنى في الآية من هم؟

وآية سورة القصص:{كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [القصص:٨٨]. والهلاك كما عرفه صاحب مفردات القرآن يأتي على عدة معان الهلاك على أربعة أوجه:

– افتقاد الشيء عنك، وهو عند غيرك موجود كقوله تعالى: {هلك عني سلطانيه}[الحاقة/٢٩].

– وهلاك الشيء باستحالة وفساد كقوله: {ويهلك الحرث والنسل}[البقرة/ ٢٠٥] ويقال: هلك الطعام.

والثالث: الموت كقوله: {إن امرؤ هلك}[النساء/١٧٦] وقال تعالى مخبرا عن الكفار: {وما يهلكنا إلا الدهر}[الجاثية/٢٤].

والرابع: بطلان الشيء من العالم وعدمه رأسا، وذلك المسمى فناء المشار إليه بقوله: {كل شيء هالك إلا وجهه}[القصص/٨٨] ويقال للعذاب والخوف والفقر: الهلاك،[١]

وآيات سورة الرحمن{كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ* وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ}[الرحمن:٢٦-٢٧] التي تشير إلى أن الفناء يشمل كل من عليها وعلام يعود الضمير في قوله عليها؟ هل يعود إلى الأرض التي نحيا عليها فكل من عليها

(١)مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني مادة: هلك.

يفنى ولا تفنى هي بحد ذاتها كما لا يدخل في الحكم السماوات وما فيها.

وبناءً على ذلك فإنه لا يبقى أمامنا إلا أن نقول الله أعلم بحقيقة ما يحدث حينئذ ولكنا نوقن بأن هذه بداية الانقلاب الكوني في ملكوت السماوات والأرض وأن هذه هي البداية الفعلية والحقيقية للقيامة بأهوالها وكربها وما يجري فيها.

في أي يوم تقوم الساعة

إذا كان الحق سبحانه قد أخفي عن الخلق جميعاً متى تقوم الساعة فلقد أنبأنا رسول الله ﷺ بيوم قيامها ألا وهو يوم الجمعة ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلِق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا يوم الجمعة"(١)

وفي حديث آخر أخبر الرسول ﷺ أن الساعة تقوم في يوم الجمعة، وفيها يُبعث العباد أيضاً، فعن أوس بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: "إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصَّعْقَة، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليَّ " رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجة، والدارمي، والبيهقي في ((الدعوات الكبير))(٢).

وفي ((مسند الطبراني الأوسط))، و ((الحلية)) لأبي نعيم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " عُرِضَت عليَّ الأيام، فعُرض عليَّ فيها يوم الجمعة، فإذا

(١)صحيح مسلم: ٨٥٤.كتاب الجمعة باب فضل يوم الجمعة

(٢)مشكاة المصابيح: (١/٤٣٠)، ورقمه: (١٣٦١)، وقال – محقق المشكاة: إسناده عند أبي داود صحيح، وصححه جماعة.

هي كمرآة بيضاء في وسطها نكتة سوداء، فقلت: ما هذه؟ قيل: الساعة"[1].

ولما كانت الساعة تقع في هذا اليوم فإن المخلوقات في كل يوم جمعة تكون مشفقةً خائفةً إلا الإنس والجن، ففي موطأ الإمام مالك، وسنن أبي داود، وسنن الترمذي والنسائي، ومسند أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه هبط، وفيه تيب عليه، وفيه مات، وفيه تقوم الساعة، وما من دابة إلا وهي مصيخة[2]، يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس، شفقاً من الساعة، إلا الجن والإنس"[3].

ما بين النفختين:

تُرى كم من الوقت يمر بين النفختين؟ وكيف يكون حال العباد ساعتها وما هي الأمور التي تجري حينئذ؟

من خلال آيات القرآن ومن خلال أحاديث رسول الله ﷺ يمكننا أن نخلص إلى عدد من الحقائق تحدث بين النفختين:

– تمر مدة طويلة من الزمن لا يعلم مقدارها على وجه الدقة إلا الله سبحانه وتعالى يدل على ذلك قوله تعالى: {ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ}[الزمر: ٦٨]. وثم حرف عطف يفيد الترتيب والتراخي، والتراخي هنا في الزمن ودلالة النص:أنه ستمر فترة طويلة من الزمن لا يعلم مقدارها إلا الحق سبحانه جاء الحديث مبيناً أنها أربعون ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله

(١)رمز الشيخ ناصر للحديث بالصحة في صحيح الجامع: (٣١/٤)، ورقمه (٣٨٩٥) وأورد طرقه في سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٥٦٨/٤)، ورقمه: (١٩٣٠).

(٢)منتظرة قيام الساعة.

(٣)مشكاة المصابيح: (٤٢٨/١)، ورقمه (١٣٥٩) وعزاه محقق المشكاة إلى الموطأ والترمذي. وقال الترمذي فيه: حسن صحيح.

عنه عن النبي ﷺ قال: " ما بين النفختين أربعون ". قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت[1].

إنها أربعون ولكن هل تُراها أربعون يوماً؟ أو أربعون شهراً؟ أو أربعون سنة؟ أو أربعون قرناً من الزمان علم ذلك عند الله سبحانه وتعالى، وكما كان أمر قيام الساعة غيب لا يعلمه إلا الحق سبحانه، فكذلك ما بين النفختين مدة من الزمن لا يعلم مقدارها ولا حقيقتها إلا رب الأرض والسماء.

-ما بين النفختين ينزل الله مطراً تنبت منه أجساد العباد مرة ثانية ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: " ثم ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً، ورفع ليتاً[2]، فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله، قال: فيصعق، ويصعق الناس، ثم يرسل الله – أو قال: ينزل الله مطراً، كأنه الطَّلُّ، أو الظِّلُّ، (نعمان[3]الشاك) فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون[4]".

إن الله قادر على كل شيء ولكنه قد جعل لكل شيء سبباً فيجعل خروج العباد للبعث مرة أخرى كخروج النبات من الأرض فكما تخرج النبتة من باطن الأرض إذا ما نزل عليها ماء السماء كذلك يحيي الله الموتي بعد ذلك{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى

(١)رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، تفسير سورة الزمر، فتح الباري: (٥٥١/١١) ورواه مسلم في صحيحه: (٢٢٧٠/٤)، ورقمه ٢٩٥٥.

(٢)الليت: صفحة العنق، وإصغاؤه: إمالته.

(٣)هو نعمان بن سالم أحد رواة هذا الحديث.

(٤)رواه مسلم:(٢٢٥٨/٤)،ورقمه: ٢٩٤٠.

إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[فصلت:٣٩].

وكما تكون البذرة أصلاً لشجرة يانعة كذلك يترك الحق سبحانه بقية من البشر لا تفنى مع مرور الوقت تكون بمثابة البذرة التي ينبتون منها مرة أخرى ألا وهي عجب الذنب، وهو عظم الصلب المستدير الذي في أصل العجز، وأصل الذنب. ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: " ما بين النفختين أربعون، ثم ينزل من السماء ماء، فينبتون كما ينبت البقل، وليس في الإنسان شيء إلا بَلي، إلا عظم واحد، وهو عجب الذنب منه يركب الخلق يوم القيامة "(١).

ولمسلم طرف في عجب الذنب، قال: " إن في الإنسان عظماً لا تأكله الأرض أبداً، فيه يركب يوم القيامة، قالوا: أي عَظْم هو يا رسول الله؟ قال: عجب الذنب".وفي رواية له وللموطأ وأبي داود والنسائي قال: قال رسول الله ﷺ: " كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب، منه خلق، وفيه يركب"(٢).

وقد دلت النصوص الصحيحة أن أجساد الأنبياء لا يصيبها البلى والفناء الذي يصيب أجساد العباد، ففي الحديث الذي يرويه أبو داود، وصححه ابن خزيمة وغيره: " إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء"(٣).

آثار النفخة الأولى:

لقد أراد الحق سبحانه أن تكون النفخة الأولى إيذاناً بنهاية الدنيا وبداية الآخرة وعلى ذلك فإنه يصاحبها ويلازمها من الأهوال ما تشيب له رؤوس الولدان، وقد

(١)البخاري. كتاب تفسير القرآن. حديث رقم ٤٥٥٤.

(٢)جامع الأصول: (٤٢١/١٠)، ورقمه: ٧٩٤١.

(٣)سنن أبي داود :كتاب الصلاة حديث رقم:٨٨٣

بينت آيات القرآن ذلك في أكثر من موضع في كتاب الله فهي تحدثنا بأن الاضطراب يعم أرجاء الكون بأسره سماءه وأرضه، جباله وبحاره، كواكبه وأفلاكه ونجومه ومن خلال كتاب الله سبحانه وبيان رسول الله ﷺ يمكننا رسم صورة واضحة لما يحدث ساعتئذ وبيان ذلك في النقاط التالية:

-اختلال نظام الكون وانفراط عقده

لقد خلق الحق سبحانه ملكوت السماوات والأرض بناءً محكماً ونظاماً بديعاً، جعل من دقة صنعه وعظيم خلقه دليلاً وبرهاناً على عظيم قدرته وبالغ عظمته، وجاءت آيات كثيرة من كتاب الله مؤكدة هذا ومبينة ذلك ومتحدية للمخاطبين جميعاً أن يعملوا أنظارهم ويجدوا فيما خلق الحق سبحانه خللاً أو اضطراباً أو عيباً أو نقصاً ومن ذلك قول الله سبحانه {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)}[الملك]

{وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩)}[الذاريات]

هذا البناء المحكم وصنع الله الذي اتقن فيه كل شيء يظل على متانته وعلى انتظامه في حركته وسيره، {لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)}[يس] يظل على ذلك إلي قيام الساعة فإذا ما جاءت يضطرب نظام الكون كله وتختل حركته وينفرط عقد نجومه وتتهاوى أفلاكه وتتساقط كواكبه ولقد صورت آيات القرآن ذلك تصويراً دقيقاً وكشفت لنا بعبارات محكمة مقدار الخلل والاضطراب الذي يصيب كل شيء في ملكوت السماوات والأرض وما يحدث للجبال والبحار وما ينزل بالأرض والسماء. وهذا جانب من

الآيات التي تبين لنا ذلك يقول الحق سبحانه:

{فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتْ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانشَقَّتْ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨)}[الحاقة]

{كَلاَّ إِذَا دُكَّتْ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً (٢٢)}[الفجر]

{إِذَا زُلْزِلَتْ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتْ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢)}[الزلزلة]

{إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥)}[الانفطار]

{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ (١٤)}[التكوير]

{يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً (١٨) وَفُتِحَتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً (١٩) وَسُيِّرَتْ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً (٢٠}[النبأ]

إن الحق سبحانه قد صور أمر يوم القيامة وأحداثه تصويراً تشيب من أجله رؤوس الولدان وأخبرنا بأن أحداثه كفيلة بأن تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت، وان تترك الناس سكارى وما هم بسكارى حيث يقول سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ* يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ

مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢].

وإن الانقلاب يعم كل شيء في ملكوت السموات والأرض ويشمل الأجرام السماوية وكل ما في الكون، فالشمس التي تغمر هذه الحياة بالضياء، تجمع وتكور في هذا اليوم، ويذهب ضوؤها، وينطفيء لهيبها، كما قال تعالى: ﴿إذا الشمس كورت﴾. والتكوير عند العرب: جمع الشيء بعضه على بعض، ومنه تكوير العمامة، وجمع الثياب بعضها على بعض، وإذا جمع بعض الشمس على بعض، ذهب ضوؤها ورمى بها.

أما القمر الذي نراه في أول الشهر هلالاً ثم يتكامل ويتنامى حتى يصبح بدراً جميلاً بديعاً، فإنه يخسف به ويذهب ضوؤه ﴿فإذا برق البصر، وخسف القمر﴾.

أما تلك النجوم المتناثرة في القبة السماوية الزرقاء، فإن عقدها ينفرط فتتناثر وتنكدر ﴿وإذا الكواكب انتثرت﴾، وقال تعالى ﴿وإذا النجوم انكدرت﴾، والانكدار: الانتثار، وأصله في لغة العرب: الانصباب.

أما البحار التي تغطي الجزء الأعظم من هذه الأرض وتعيش في باطنها عوالم هائلة من الأحياء، فإنها تفجر في ذلك اليوم، وقد علمنا في هذا العصر الهول العظيم الذي يحدثه انفجار الذرات الصغيرة التي هي أصغر من ذرات الماء فكيف إذا فجرت ذرات المياه في هذه البحار العظيمة، عند ذلك تسجر البحار، وتشتعل نارا، ولك أن تتصور هذه البحار العظيمة الهائلة وقد أصبحت مادة قابلة للإشتعال، كيف يكون منظرها، اللهب يرتفع منها إلى أجواز الفضاء، قال تعالى ﴿وإذا البحار فجرت﴾، وقال ﴿وإذا البحار سجرت﴾.

وقد ذهب المفسرون قديما إلى أن المراد بتفجير البحار، تشقق جوانبها وزوال

ما بينها من الحواجز واختلاط الماء العذب بالماء المالح، حتى تصير بحرا واحدا، وما ذكرناه أقرب وأوضح، فإن التفجير بالمعنى الذي ذكرناه مناسب للتسجير والله أعلم بالصواب.

رسم صورة متكاملة للأحداث من خلال عبارات المفسرين

لقد نزلت آيات القرآن الكريم مفصلة الحديث عن الساعة وأهوالها وشدة الفزع والكرب فيها، وفي هذا المبحث سنتكفي بجانب من الآيات التي تبين ذلك وتناول المفسرين لها:

تصوير صاحب الظلال للأحداث:

لقد صور صاحب الظلال هذا الموقف تصويراً دقيقاً في غاية الروعة والجمال فيقول: فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة، فتبع هذه النفخة تلك الحركة الهائلة:﴿وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة﴾.. ومشهد حمل الأرض والجبال ونفضها ودكها دكة واحدة تسوي عاليها بسافلها.. مشهد مروع حقا. هذه الأرض التي يجوس الإنسان خلالها آمنا مطمئنا، وهي تحته مستقرة مطمئنة. وهذه الجبال الراسية الوطيدة الراسخة التي تهول الإنسان بروعتها واستقرارها.. هذه مع هذه تحمل فتدك كالكرة في يد الوليد.. إنه مشهد يشعر معه الإنسان بضآلته وضآلة عالمه إلى جانب هذه القدرة القادرة، في ذلك اليوم العظيم..

فإذا وقع هذا. إذا نفخ في الصور نفخة واحدة، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة.. فهو حينئذ الأمر الذي تتحدث عنه السورة:﴿فيومئذ وقعت الواقعة﴾.. والواقعة اسم من أسمائها كالحاقة والقارعة. فهي الواقعة لأنها لا بد واقعة. كأن طبيعتها وحقيقتها الدائمة أن تكون واقعة ! وهو اسم ذو إيحاء معين وهو إيحاء مقصود في صدد الارتياب فيها والتكذيب !

ولا يقتصر الهول على حمل الأرض والجبال ودكها دكة واحدة، فالسماء في هذا اليوم الهائل ليست بناجية: ﴿وانشقت السماء فهي يومئذ واهية﴾..

ونحن لا ندري على وجه التحقيق ما السماء المقصودة بهذا اللفظ في القرآن. ولكن هذا النص والنصوص الأخرى التي تشير إلى الأحداث الكونية في ذلك اليوم العظيم كلها تشير إلى انفراط عقد هذا الكون المنظور، واختلال روابطه وضوابطه التي تمسك به في هذا النظام البديع الدقيق، وتناثر أجزائه بعد انفلاتها من قيد الناموس..

ولعله من المصادفات الغريبة أن يتنبأ الآن علماء الفلك بشيء يشبه هذا تكون فيه نهاية العالم، استنباطا من ملاحظتهم العلمية البحتة، وحسب القليل الذي عرفوه من طبيعة هذا الكون وقصته كما افترضوها..

فأما نحن فنكاد نشهد هذه المشاهد المذهلة، من خلال النصوص القرآنية الجازمة ؛ وهي نصوص مجملة توحي بشيء عام ؛ ونحن نقف عند إيحاء هذه النصوص، فهي عندنا الخبر الوحيد المستيقن عن هذا الشأن، لأنها صادرة من صاحب الشأن، الذي خلق، والذي يعلم ما خلق علم اليقين. نكاد نشهد الأرض وهي تحمل بجبالها بكتلتها هذه، الضخمة بالقياس إلينا، الصغيرة كالهباءة بالقياس إلى الكون، فتدك دكة واحدة ؛ ونكاد نشهد السماء وهي مشققة واهية والكواكب وهي متناثرة منكدرة.. كل ذلك من خلال النصوص القرآنية الحية، المشخصة المشاهد بكامل قوتها كأنها حاضرة..

{وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ. يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ}.ثم يغمر الجلال المشهد ويغشيه، وتسكن الضجة التي تملأ الحس من النفخة والدكة والتشقق والانتثار. يسكن هذا كله ويظهر في المشهد عرش

الواحد القهار: ﴿والملك على أرجائها، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾..

والملائكة على أرجاء هذه السماء المنشقة وأطرافها، والعرش فوقهم يحمله ثمانية.. ثمانية أملاك أو ثمانية صفوف منها، أو ثمانية طبقات من طبقاتهم، أو ثمانية مما يعلم الله. لا ندري نحن من هم ولا ما هم. كما لا ندري نحن ما العرش ؟ ولا كيف يحمل ؟ ونخلص من كل هذه الغيبيات التي لا علم لنا بها، ولم يكلفنا الله من علمها إلا ما قص علينا. نخلص من مفردات هذه الغيبيات إلى الظل الجليل الذي تخلعه على الموقف. وهو المطلوب منا أن تستشعره ضمائرنا. وهو المقصود من ذكر هذه الأحداث ليشعر القلب البشري بالجلال والرهبة والخشوع، في ذلك اليوم العظيم، وفي ذلك الموقف الجليل:

﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾.. فالكل مكشوف. مكشوف الجسد، مكشوف النفس، مكشوف الضمير، مكشوف العمل، مكشوف المصير. وتسقط جميع الأستار التي كانت تحجب الأسرار، وتتعرى النفوس تعري الأجساد، وتبرز الغيوب بروز الشهود.. ويتجرد الإنسان من حيطته ومن مكره ومن تدبيره ومن شعوره، ويفتضح منه ما كان حريصا على أن يستره حتى عن نفسه ! وما أقسى الفضيحة على الملأ. وما أخزاها على عيون الجموع ! أما عين الله فكل خافية مكشوفة لها في كل آن. ولكن لعل الإنسان لا يشعر بهذا حق الشعور، وهو مخدوع بستور الأرض. فها هو ذا يشعر به كاملا وهو مجرد في يوم القيامة. وكل شيء بارز في الكون كله. الأرض مدكوكة مسواة لا تحجب شيئا وراء نتوء ولا بروز. والسماء متشققة واهية لا تحجب وراءها شيئا، والأجسام معراة لا يسترها شيء، والنفوس كذلك مكشوفة ليس من دونها ستر وليس فيها سر !

ألا إنه لأمر عصيب. أعصب من دك الأرض والجبال، وأشد من تشقق السماء

! وقوف الإنسان عريان الجسد، عريان النفس، عريان المشاعر، عريان التاريخ، عريان العمل ما ظهر منه وما استتر. أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله، من الإنس والجن والملائكة، وتحت جلال الله وعرشه المرفوع فوق الجميع..

وإن طبيعة الإنسان لمعقدة شديدة التعقيد ؛ ففي نفسه منحنيات شتى ودروب، تتخفى فيها نفسه وتتدسس بمشاعرها ونزواتها وهفواتها وخواطرها وأسرارها وخصوصياتها. وإن الإنسان ليصنع أشد مما تصنعه القوقعة الرخوة الهلامية حين تتعرض لوخزة إبرة، فتنطوي سريعا، وتنكمش داخل القوقعة، وتغلق على نفسها تماما. إن الإنسان ليصنع أشد من هذا حين يحس أن عينا تدسست عليه فكشفت منه شيئا مما يخفيه، وأن لمحة أصابت منه دربا خفيا أو منحنى سريا ! ويشعر بقدر عنيف من الألم الواخز حين يطلع عليه أحد في خلوة من خلواته الشعورية..

فكيف بهذا المخلوق وهو عريان. عريان حقا. عريان الجسد والقلب والشعور والنية والضمير. عريان من كل ساتر. عريان... كيف به وهو كذلك تحت عرش الجبار، وأمام الحشد الزاخر بلا ستار ؟! ألا إنه لأمر، أمر من كل أمر !!![1]

تصوير القرطبي لأهوال يوم القيامة

قال القرطبي: " روى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: " من سره أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ: (إذا الشمس كورت) [التكوير: ١]، (إذا السماء انفطرت) [الانفطار: ١]، (إذا السماء انشقت) [الانشقاق: ١].قال: هذا حديث حسن[2].

وإنما كانت هذه السور الثلاث أخص بالقيامة، لما فيها من انشقاق السماء

(١) الظلال

(٢)حديث صحيح رواه الترمذي والحاكم وأحمد، انظر صحيح الجامع: (٣/٣٠١) ورقم الحديث: ٦١٩١.

وانفطارها، وتكور شمسها وانكدار نجومها، وتناثر كواكبها، إلى غير ذلك من أفزاعها وأهوالها، وخروج الخلق من قبورهم إلى سجونهم أو قصورهم، بعد نشر صحفهم، وقراءة كتبهم، وأخذها بأيمانهم وشمائلهم، أو من وراء ظهورهم في موقفهم على ما يأتي بيانه.

قال الله تعالى: (إذا السماء انشقت) [الانشقاق: ١]. وقال (إذا السماء انفطرت) [الانفطار: ١]، وقال: (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ) [الفرقان: ٢٥]، فتراها واهية منفطرة متشققة، كقوله تعالى: (وفتحت السماء فكانت أبواباً) [النبأ: ١٩]، ويكون الغمام سترة بين السماء والأرض، وقيل إن الباء بمعنى عن، أي: تشقق عن سحاب أبيض، ويقال: انشقاقها لما يخلص إليها من حر جهنم، وذلك إذا بطلت المياه، وبرزت النيران، فأول ذلك أنها تصير حمراء صافية كالدهن، وتتشقق لما يريد الله من نقض هذا العالم، ورفعه. وقد قيل: إن السماء تتلون، فتصفر، ثم تحمر، أو تحمر، ثم تصفر، كالمهرة تميل في الربيع إلى الصفرة، فإذا اشتد الحر مالت إلى الحمرة، ثم إلى الغبرة، قاله الحليمي.

وقوله تعالى: (إذا الشمس كورت) [التكوير: ١]، قال ابن عباس رضي الله عنه: تكويرها إدخالها في العرش. وقيل: ذهاب صفوها، قاله الحسن وقتادة، وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد. وقال أبو عبيدة: كورت مثل تكوير العمامة، تلف فتمحى. وقال الربيع بن خثيم: كورت رمي بها، ومنه: كورته، فتكور،. أي: سقط. قلت: وأصل التكوير الجمع، مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكورها، أي: لاثها، وجمعها، فهي تكور، ثم يمحو ضوءها ثم يرمى بها، والله أعلم.

وقوله تعالى: (وإذا النجوم انكدرت) [التكوير: ٢]، أي: انتشرت، قيل: تتناثر من أيدي الملائكة، لأنهم يموتون، وفي الخبر أنها معلقة بين السماء والأرض

بسلاسل بأيدي الملائكة. وقال ابن عباس رضي الله عنه: انكدرت تغيرت، وأصل الانكدار الانصباب، فتسقط في البحار، فتصير معها نيراناً، إذا ذهبت المياه.

وقوله: (وإذا الجبال سيرت) [التكوير: ٣]، هو مثل قوله: (ويوم نسير الجبال) [الكهف: ٤٧]، أي: تحول عن منزلة الحجارة، فتكون كثيباً مهيلاً، أي: رملاً سائلاً، وتكون كالعهن، وتكون هباء منبثاً، وتكون سراباً، مثل السراب الذي ليس بشيء. وقيل: إن الجبال بعد اندكاكها تصير كالعهن من حر جهنم، كما تصير السماء من حرها كالمهل.

قال الحليمي: وهذا والله أعلم لأن مياه الأرض كانت حاجزة بين السماء والأرض، فإذا ارتفعت، وزيد مع ذلك في إحماء جهنم أثر في كل واحد من السماء والأرض ما ذكر.

وقوله: (وإذا العشار عطلت) [التكوير: ٤] أي: عطلها أهلها، فلم تحلب من الشغل بأنفسهم. والعشار: الإبل الحوامل، واحدها عشر، وهي التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع، وبعدما تضع، وإنما خص العشار بالذكر، لأنها أعز ما يكون على العرب، فأخبر أنها تعطل يوم القيامة. ومعناه أنهم إذا قاموا من قبورهم، وشاهد بعضهم بعضاً ورأوا الوحوش والدواب محشورة، وفيها عشارهم التي كانت أنفس أموالهم، لم يعبؤوا بها، ولم يهمهم أمرها، ويحتمل تعطل العشار إبطال الله تعالى أملاك الناس عما كان ملَّكهم إياها في الدنيا، وأهل العشار يرونها، فلا يجدون إليها سبيلاً. وقيل: العشار: السحاب، يعطل مما يكون فيه، وهو الماء، فلا يمطر. وقيل: العشار الديار، تعطل فلا تسكن. وقيل: الأرض التي يعشر زرعها تعطل فلا تزرع، والقول الأول أشهر وعليه من الناس الأكثر.

وقوله: (وإذا الوحوش حشرت) [التكوير: ٥] أي: جمعت، والحشر الجمع، وقد تقدم.

وقوله (وإذا البحار سجرت) [التكوير: ٦] أي: أوقدت، وصارت ناراً. رواه الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنه. وقال قتادة: غار ماؤها، فذهب. وقال الحسن والضحاك: فاضت. قال ابن أبي زمنين: سجرت حقيقته ملئت، فيفضي بعضها إلى بعض، فتصير شيئاً واحداً. وهو معنى قول الحسن. ويقال: إن الشمس تلف، ثم تلقى في البحار، فمنها تحمى، وتتقلب ناراً. قال الحليمي: ويحتمل إن كان هذا هكذا أن البحار في قول من فسر التسجير بالامتلاء هو أن النار حينئذ تكون أكثرها، لأن الشمس أعظم من الأرض مرات كثيرة، فإذا كورت، وألقيت في البحر، فصارت ناراً، ازدادت امتلاءً.

وقوله: (وإذا النفوس زوجت) [التكوير: ٧] تفسير الحسن أن تلحق كل شيعة شيعتها: اليهود باليهود، والنصارى بالنصارى، والمجوس بالمجوس، وكل من كان يعبد من دون الله شيئاً يلحق بعضهم ببعض، والمنافقون بالمنافقين، والمؤمنون بالمؤمنين. وقال عكرمة: المعنى تقرن بأجسادها، أي: ترد إليها، وقيل: يقرن الغاوي بمن أغواه من شيطان أو إنسان. يقرن المؤمنون بالحور العين، والكافرون بالشياطين.

وقوله: (وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ) [التكوير: ٨] يعني بنات الجاهلية، كانوا يدفنوهن أحياء، لخصلتين: إحداهما: كانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله، فألحقوا البنات به. الثانية: مخافة الحاجة والإملاق، وسؤال الموءودة على وجه التوبيخ لقاتلها، كما يقال للطفل إذا ضرب: لم ضربت؟ وما ذنبك؟ وقال الحسن: أراد الله أن يوبخ قاتلها، لأنها قتلت بغير ذنب. وبعضهم يقرأ: وإذا الموءودة سألت، تعلق الجارية

بأبيها، فتقول: بأي ذنب قتلتني؟ وقيل: معنى سئلت، يسأل عنها كما قال: (إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً) [الإسراء: ٣٤].

وقوله: (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ) [التكوير: ١٠] أي: للحساب وسيأتي.

وقوله: (وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ) [التكوير: ١١] قيل: معناه طويت، كما قال الله تعالى: (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ) [الأنبياء: ١٠٤]، أي: كطي الصحيفة على ما فيها، فاللام بمعنى (على)، يقال: كشطت السقف، أي: قلعته، فكان المعنى: قلعت، فطويت والله أعلم، والكشط والقشط سواء، وهو القلع.

وقوله: (وإذا الجحيم سعرت) [التكوير: ١٢]، أي: أوقدت. وقوله: (وإذا الجنة أزلفت) [التكوير: ١٣] أي: قربت لأهلها، وأدنيت.

(علمت نفس ما أحضرت) [التكوير: ١٤] أي: من عملها، وهو مثل قوله: (علمت نفس ما قدمت وأخرت) [الانفطار: ٥].

النفخة الثانية – نفخة البعث {ثم نفخ في أخرى فإذاهم قيام ينظرون}:

لقد أذن الحق. سبحانه لساعة الحساب أن تبدأ، وليوم الفصل والقضاء أن يأتي فحينئذ يأمر الملك الموكل بالصور فينفخ فيه مرة أخرى وحينئذ تتابع المشاهد وتتوالى الأحداث ولا تتوقف حتى يستقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار.

وعلى الرغم من أن هذه الأحداث وتلكم الأهوال لما تقع بعد، فقد صورتها لنا آيات القرآن بصورة تشيب من هولها رؤوس الولدان كذلك تناولت مواقفها جميعاً بالشرح والتوضيح والبيان وذلك ليكون الناس جميعاً على بصيرة من أمرهم وبينة من شأنهم كلهم.

وسنحاول من خلال آيات القرآن العمل على تقريب هذه المشاهد للقارئ حتى نحيط بها علماً هذا من جانب، ومن جانب آخر ليكون هذا البيان حافزاً ودافعاً للعمل

على الوقاية من عذاب الله في هذا اليوم وهي مواقف ومشاهد في يوم القيامة الأول منها تحت عنوان:

فإذا هم قيام ينظرون:

لقد تناولت هذا الموقف الكثير من آيات القرآن وكل آية منها تتناول جانباً من الحدث وتعبر عن وضع وعن حالة من شدة الكرب في هذا اليوم، وتصف حالة الخزي والذل والهوان التي يحشر عليها الكفار والمجرمون في يوم القيامة:

-(يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ - خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ) [المعارج: ٤٣-٤٤].

والأجداث هي القبور، والنص يصور سرعة خروجهم من القبور في ذلك اليوم منطلقين إلى مصدر الصوت كأنهم يسرعون إلى الأنصاب التي كانوا يعبدونها في الدنيا، ولكنهم اليوم لا ينطلقون فرحين أشرين بطرين كما كان حالهم عندما كانوا يقصدون الأنصاب، بل هم أذلاء، أبصارهم خاشعة، والصغار يعلوهم، على النعت الذي كان يعدهم الله به في اليوم.

٢- وقال تعالى: (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ - خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ - مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ) [القمر: ٦- ٨]. وهذه الآية تنص على ما نصت عليه الآيات السابقة من خروجهم خاشعي الأبصار أذلاء، مسرعين إلى مصدر الصوت الذي يناديهم ويدعوهم، وتزيدنا بياناً بإعطائنا صورة حية لمشهد البعث والنشور، فحالهم في ذلك اليوم في حركتهم وانطلاقتهم وهم يخرجون مسرعين كحال الجراد المنتشر، ويفيدنا النص أيضاً اعتراف الكفار في ذلك اليوم بصعوبة موقفهم (يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ) [القمر: ٨].

٣- ويفيدنا نص ثالث أن الكفار ينادون بالويل والثبور عندما ينفخ في الصور متسائلين عمن أقامهم من رقدتهم.(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ - قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا) [يس: ٥١-٥٢].

أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة

لقد بينا في الفقرات السابقة ما يحدث بين النفختين ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: " ثم ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً، ورفع ليتاً[١]، فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله، قال: فيصعق، ويصعق الناس، ثم يرسل الله - أو قال: ينزل الله مطراً، كأنه الطَّلُّ، أو الظِّلُّ، (نعمان[٢]الشاك) فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون[٣]".

لقد انتفض الخلق من رقدتهم وإن الحق لقادر على أن يعيد خلقهم مرة أخرى بكلمة كن {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)}[يس:٨٢] ولكنه قد جعل لكل شيء سبباً فجعل من نزول هذا المطر على تلك العظام الباقية من عجب الذنب سبباً في بداية رحلة الخلق مرة أخرى، فلقد نبتت أجسادهم بفعل هذا المطر وكانت عظام عجب الذنب بمثابة البذرة التي نبتت منها الأجساد مرة أخرى. وصدق ربنا حيث يقول:{مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥)}[طه:٥٥]

لقد ربت الأرض وانتفخت كالمرأة الحامل بالجنين في أحشائها فهي تستعد لولادته أو كالأرض الخصبة الذي، وضعت فيها البذور ونزل عليها الماء فانتفخت

(١)الليت: صفحة العنق، وإصغاؤه: إمالته.

(٢)هو نعمان بن سالم أحد رواة هذا الحديث.

(٣)رواه مسلم:(٤/٢٢٥٨)،ورقمه: ٢٩٤٠.

البذور في بطنها وتكاد أن تخرج منها فهي كذلك يوم القيامة تتهيأ الأجساد وتستعد للخروج ومتى تنتظر إنها تنتظر هذه الصيحة: **{ثم نفخ في أخرى فإذاهم قيام ينظرون}**

بمجرد سماع الخلق لهذه الصيحة إذا هم قيام ينظرون تتشقق عنهم الأرض ويخرجون من بطنها وأول من تنشق عنه الأرض رسولنا ﷺ ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع.. وأول مشفع "[1]

إنه رسول الله ﷺ هو أول من تنشق عنه الأرض وكأن الحق سبحانه أراد بذلك أن يطمئن عباده المؤمنين به والمصدقين برسوله فشق الأرض عن نبيه أولاً ليظهر للكون بأسره جانباً من قدر ومكانة ومنزلة رسول الله ﷺ وليطمئن جموع المؤمنين بعد ذلك حينما تنشق عنهم قبورهم يستبشرون ويطمئنون فهذا إمامهم ورسولهم ونبيهم قد سبقهم إلى ساحات العرض والحساب وصدق ربنا حيث يقول: {لا يَحْزُنُهُمْ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمْ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣)}[الأنبياء].

جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة:

لقد انشقت الأرض عن الأجساد تُرى كيف كانت هيئتهم حينما خرجوا وصورتهم حينما انتفضوا، وما هي مشاعرهم وأحاسيسهم حينما بُعثوا لقد كانت على النحو التالي:

- فُرادى كل يبعث وحده انقطعت صلته تماماً بمن حوله {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى

(١)صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ: (١٧٨٢/٤) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ: (١٧٨٢/٤) ورقمه: ٢٢٧٨.

كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ}[الأنعام:٩٤] {وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً (٩٥)}[مريم]

-بُعثوا على هيئتهم التي خُلقوا عليها أول مرة، حفاة عراة غرلاً مجردين من كل شيء وعندما سمعت عائشة الرسول ﷺ يقول:(يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا. قالت: يا رسول الله، الرجال والنساء جميعا، ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض) متفق عليه[1].

-يخرجون سراعاً ترى الكافرين منهم مطأطأي الرؤوس خاشعة أبصارهم أذلاء: {يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنْ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤)}[المعارج]

-يخرجون ومنظرهم العام كأسراب الجراد المنتشر {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦) خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِي يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ}[القمر:]...

-يحشر الخلق جميعاً الإنس والجن والوحش والطير {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨)}[الأنعام]. {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥)}[التكوير]

أول من يكسى

إذا كان الحق سبحانه قد أكرم نبيه محمداً ﷺ أنه أول من تنشق عنه الأرض، فلقد جعل الفضل لمن يُكسى أولاً لنبيه وخليله إبراهيم عليه السلام وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) الْآيَةَ وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ، وَإِنَّهُ سَيُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ،فَأَقُولُ: يَا

(١) البخاري. كتاب الرقاق. حديث رقم ٦٠٤٦.

رَبِّ أَصْحَابِي !! فَيَقُولُ إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ (وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ) إِلَى قَوْلِهِ (الْحَكِيمُ) قَالَ فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ) رواه البخاري[1].

قال ابن حجر: وأخرج البيهقي من طريق ابن عباس نحو حديث الباب وزاد (وأول من يكسى من الجنة إبراهيم، يكسى حلة من الجنة، ويؤتى بكرسي فيطرح عن يمين العرش، ثم يؤتى بي فأكسى حلة من الجنة لا يقوم لها البشر)[2].

وذكر العلماء أن تقديم إبراهيم على غيره بالكسوة في يوم القيامة، لأنه لم يكن في الأولين والآخرين أخوف لله منه، فتعجل له الكسوة أمانا له ليطمئن قلبه.

ويحتمل لأنه – كما جاء في الحديث – أول من لبس السراويل إذا صلى مبالغة في التستر وحفظا لفرجه من أن يماس مصلاه، ففعل ما أمر به، فجوزي بذلك أن يكون أول من يستر يوم القيامة، ويحتمل أن الذين ألقوه في النار جردوه ونزعوا ثيابه على أعين الناس، كمن يراد قتله، فجوزي بكسوته في يوم القيامة أول الناس على رؤوس الأشهاد، وهذا أحسنها[3].

وعندما سمعت عائشة الرسول ﷺ يقول:(يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا. قالت: يا رسول الله، الرجال والنساء جميعا، ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض) متفق عليه[4].

وقد جاء في بعض النصوص أن كل إنسان يبعث في ثيابه التي مات فيها، فقد روى أبو داود وابن حبان والحاكم عن أبي سعيد الخدري أنه لما حضره الموت

(١) البخاري. كتاب أحاديث الأنبياء. حديث رقم ٣١٠٠.
(٢)فتح الباري: (٣٨٤/١١).
(٣)تذكرة القرطبي: ٢٠٩.
(٤) البخاري. كتاب الرقاق. حديث رقم ٦٠٤٦.

دعا بثياب جدد، فلبسها، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺيقول: (إن الميت يبعث في ثيابه التي يموت فيها) وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي[1]. وقد وفق البيهقي بين الحديثين السابقين بثلاثة أوجه:

الأول: أنها تبلى بعد قيامهم من قبورهم، فإذا وافوا الموقف يكونون عراة ثم يلبسون من ثياب الجنة.

الثاني: أنه إذا كسي الأنبياء ثم الصديقون، ثم من بعدهم على مراتبهم، فتكون كسوة كل إنسان من جنس ما يموت فيه، ثم إذا دخلوا الجنة لبسوا من ثياب الجنة.

الثالث: أن المراد بالثياب هاهنا الأعمال، أي يبعث في أعماله التي مات فيها من خير أو شر، قال الله تعالى ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾، وقال: ﴿وثيابك فطهر﴾.

واستشهد البيهقي على هذا الجواب الأخير بحديث الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: (يبعث كل عبد على ما مات عليه) رواه مسلم[2]. ولا يفقه من هذا الحديث أن العبد يبعث في ثيابه التي كفن فيها أو مات فيها، وإنما يبعث على الحال التي مات عليها من الإيمان أو الكفر، واليقين والشك، كما يبعث على العمل الذي كان يعمله عند موته يدل على هذا ما رواه عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إذا أراد الله بقوم عذابا، أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بعثوا على أعمالهم) رواه مسلم[3].

وجاء أن الذي يموت وهو محرم يبعث يوم القيامة ملبيا، فعن عبد الله بن

(١) سنن أبي داود. كتاب الجنائز. حديث رقم ٢٧٠٧. سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٢٣٤/٤)، ورقم الحديث: ١٦٧١.

(٢) مسلم. كتاب الجنة وصفة نعيمها. حديث رقم ٥١٢٦.

(٣) البخاري. كتاب الفتن. حديث رقم ٦٥٧٥. ومسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها. حديث رقم ٥١٢٧.

عباس قال: إن رجلا كان مع النبي ﷺفوقصته ناقته وهو محرم فمات، فقال رسول اللهﷺ: (اغسلوه بماء وسدر وكفنوه في ثوبيه، ولا تمسوه بطيب ولا تخمروا رأسه، فإنه يبعث يوم القيامة ملبيا) رواه البخاري ومسلم [1].

والشهيد يبعث يوم القيامة وجرحه يثغب دماً اللون لون دم والريح ريح المسك[2]. ومن هنا استحب تلقين الميت لا إله إلا الله، لعله يموت على التوحيد، ثم يبعث يوم القيامة ناطقا بهذه الكلمة الطيبة.

الأرض التي يحشر إليها الخلق يوم القيامة

مما لا شك فيه أن الخلق سيحشرون إلى أرض أخرى غير الأرض التي كانوا عليها في حياتهم الدنيا دل على ذلك النصوص الصريحة من القرآن والثابت من حديث رسول الله ﷺ:

– يقول الحق سبحانه:﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار، وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد، سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار﴾ [إبراهيم:٤٨–٥٠]. فنصت هذه الآيات صراحة أن الأرض تبدل غير الأرض وكذلك السماوات.

– وبينت الأحاديث الصحيحة أن الخلق يحشرون إلى أرض جرداء بيضاء عفراء ملساء كقرص النقي ففي صحيحي البخاري ومسلم عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء

(١) البخاري. كتاب الجنائز. حديث رقم ١١٨٦. ومسلم. كتاب الحج. حديث رقم ٢٠٩٣.

(٢)عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ ثَعْلَبَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِقَتْلَى أُحُدٍ زَمِّلُوهُمْ بِدِمَائِهِمْ فَإِنَّهُ لَيْسَ كَلْمٌ يُكْلَمُ فِي اللَّهِ إِلَّا يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَدْمَى لَوْنُهُ لَوْنُ الدَّمِ وَرِيحُهُ رِيحُ الْمِسْكِ * سنن النسائي. كتاب الجنائز. حديث رقم ١٩٧٥. وفي المسند عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ مَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَوْنُ جُرْحِهِ لَوْنُ الدَّمِ وَرِيحُهُ رِيحُ الْمِسْكِ * المسند للإمام أحمد بن حنبل. باقي مسند المكثرين. حديث رقم ١٠٥١٤

كقرصة النقي " قال سهل أو غيره: " ليس فيها معلم لأحد "[١].

قال الخطابي: العفر: بياض ليس بناصع. وقال عياض: العفر بياض يضرب إلى حمرة قليلاً. وقال ابن فارس: معنى عفراء خالصة البياض[٢].والنَقِيّ: بفتح النون وكسر القاف، أي: الدقيق النقي من الغش والنخال.والمعْلم: العلامة التي يُهتدى بها إلى الطريق، كالجبل والصخرة، أو ما يضعه الناس دالاً على الطرقات، أو على قسمة الأراضي.

ولقد جاءت نصوص كثيرة عن عدد من الصحابة تفيد معنى الحديث الذي سقناه هنا ورواه صاحبا الصحيحين، فقد أخرج عبد بن حميد والطبري في تفاسيرهم والبيهقي في شعب الإيمان من طريق عمرو بن ميمون عن عبد الله ابن مسعود في قوله تعالى: (يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ) [إبراهيم: ٤٨]. قال: تبدل الأرض أرضاً كأنها الفضة لم يسفك عليها دم حرام، ولم يعمل عليها خطيئة، ورجاله رجال الصحيح، وهو موقوف، وأخرجه البيهقي من وجه آخر مرفوع. وقال: الموقوف أصح[٣].

وأخرجه الطبري والحاكم من طريق عاصم عن زر بن حبيش عن ابن مسعود بلفظ: " أرض بيضاء كأنها سبيكة فضة " ورجاله موثقون أيضاً[٤].

وعند عبد بن حميد من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة قال: بلغنا أن هذه الأرض يعني أرض الدنيا تطوى، وإلى جنبها أخرى يحشر الناس منها إليها. وفي

---

(١)رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب يقبض الله الأرض، فتح الباري: (٣٧٢/١١). ومسلم في كتاب صفات المنافقين، باب البعث والنشور. (٢١٥/٤) ورقم الحديث: ٢٧٩٠ والسياق للبخاري.

(٢)فتح الباري: (٣٧٥/١١).

(٣)فتح الباري: (٣٧٥/١١).

(٤)فتح الباري: (٣٧٥/١١).

حديث الصور الطويل: " تبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات، فيبسطها ويسطحها، ويمدّها مدَّ الأديم العكاظي، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ثم يزجر الله الخلق زجرة واحدة، فإذا هم في هذه الأرض المبدَّلة، في مثل مواضعهم من الأولى، ما كان في بطنها كان في بطنها، وما كان على ظهرها كان على ظهرها"(١).

-يقول سبحانه ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. فدلت هذه الآية ضمناً على تبدل السماء وقد طوى الله السماوات والأرض بيمينه وأكد على المعنى حديث رسول الله ﷺ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال :قال رسول اللهﷺ: (يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، فأين ملوك الأرض)(٢).

وعن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-قال: قال رسول اللهﷺ: (يطوي الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرض بشماله - وفي رواية :يأخذهن بيده الأخرى - ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون أين المتكبرون)(٣).

ومما لا شك فيه أن الأرض التي نحيا عليها ستكون يوم القيامة أحد شهود الإثبات على العباد وتبين آيات القرآن حيث يقول الحق سبحانه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾[الزلزلة: ١-٥]. فلا يعقل ساعتها أن تكون هي الأرض التي يحشرون ويقفون عليها وقد ازدحمت بهم فليس فيها موطئ لقدم وتكون شاهد إثبات

(١)فتح الباري: (٣٧٥/١١).

(٢)البخاري. كتاب الرقاق. حديث رقم ٦٠٣٨.

(٣) مسلم. كتاب صفة القيامة والجنة والنار. حديث رقم ٤٩٩٥.

عليهم في ذات الوقت.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الذي يبدل من الأرض إنما هو صفاتها فحسب، فمن ذلك حديث عبد الله بن عمرو الموقوف عليه، قال: " إذا كان يوم القيامة مُدت الأرض مد الأديم، وحشر الخلائق ". ومن ذلك حديث جابر رفعه: تمدُّ الأرض مدّ الأديم، ثم لا يكون لابن آدم منها إلا موضع قدميه ". ورجاله ثقات، إلا أنه اختلف على الزهري في صحابيه(١).

ومنها حديث ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، قال: " يزاد فيها، وينقص منها، ويذهب آكامها وجبالها، وأوديتها، وشجرها، وتمد مد الأديم العكاظي "(٢).

ولكن هذا الرأي رأي مرجوح لأنه يعتمد على أخبار موقوفة على صحابة رسول الله ﷺ يعارضها نص آيات القرآن الكريم التي أثبتت ذلك والصحيح من حديث رسول الله ﷺ

نظرة على حال العباد فوق أرض المحشر:

لقد بُعث الخلق من رقدتهم وانتفضوا من قبورهم وحشر الإنس والجن والوحش والطير إلى تلكم الأرض البيضاء الجرداء التي لم يعص الله عليها، ولم يرتكب فيها ذنب، تُرى كيف تكون هيئتهم وصورتهم حينما يحشرون؟ وكم من الوقت ينتظرون حتى يتم الفصل والقضاء بين الخلائق؟ لقد رسمت آيات القرآن لهذا الوقوف صورة معبرة عن حال العباد في هذا الموقف ومفزعة في الوقت ذاته ومن خلال النقاط التالية سنحاول بيان ذلك:

(١)فتح الباري: (٣٧٦/١١).

(٢)فتح الباري: (٣٧٦/١١).

كرب لا يُحتمل وهم وغم لا يُطاق

لقد وصل الكرب والغم من الناس مبلغه، حتى تركهم في حالة من الذهول والهم وصلت بهم لدرجة ذهلت فيها المرضع عمن أرضعته، وهي لا تفعل ذلك إلا لأمر عصيب، وحتى بدت صورة الناس كصورة السكارى والمخمورين لا يفيقون ولا يدركون، ولكنهم ليسوا سكارى من شراب يتعاطونه أو مخدر قد تناولوه، وإنما من شدة الكرب في هذا اليوم وصلت بهم إلى حالة من الهم والغم والذهول والكرب الشديد كشفت لنا عنها تلك الآيات من كتاب الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ* يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[الحج: ١-٢].

أمام الكثير من النكبات نرى النَّاس يصابون بالهذيان، ويكلِّمون أنفسهم من هول الصدمة، وكأنهم سكارى؛ فما بالك بمواقف القيامة وهي أشدُّ هولاً ورعباً؟.

مَطْلَعٌ عنيف رهيب، ومشهد ترتجف لهوله القلوب، يبدأ بالنداء الشامل للناس جميعاً، ثمَّ يأخذ بالتفصيل، فإذا هو أشدُّ رهبة من التهويل. مشهد حافل بمرضعة ذاهلة عمَّن أرضعت، تنظر ولا ترى، وتتحرَّك ولا تعي، وحامل تُسقط حملها للرعب الَّذي ينتابها، فأي موقف هذا الَّذي يسلب الأم عاطفتها نحو رضيعها فتذهل عنه، وأي خوف هذا الَّذي يجعل الحامل تسقط حملها؟. إنها صورة منتقاة بدقَّة، تمثِّل العطف والحنان وهو يذوب ويتلاشى أمام هول يوم القيامة، حيث تنهار أقدس العواطف البشرية وأقواها أمام أمواج الذعر والهلع، وينخلع الإنسان عن عقله وتفكيره مذهولاً مخبولاً.

إنه حساب الله قد حانت ساعته، فالنَّاس سكارى وما هم بسكارى، يتبدَّى السُّكْر

في نظراتهم الذاهلة، وفي خطواتهم المترنِّحة، دون أن يشربوا الخمر. إنه مشهد مزدحم بذاك الحشد المتماوج، تكاد العين تبصره لحظة التلاوة، بينما الخيال يتملاَّه، ولا يكاد يبلغ أقصاه، وهو هَوْلٌ لا يقاس بالحجم والضخامة، ولكن يقاس بوقعه في النفوس الآدمية، في المرضعات الذاهلات، والحوامل المـُلْقيات، وبالنَّاس السكارى لأن عذاب الله شديد.

فأين يكمن الرعب؟ هل هو في اشتعال البحار، أم في زوال الجبال، أم في تفجُّر الكواكب وتناثرها؟ كلُّ هذا يُشعر بالرعب والهلع، ولكنَّ الرعب الأكبر يتجلَّى في زلزلة الأرض، الَّتي تحدث حين قيام الساعة، فهو أمر هائل، وخطر عظيم، لا يقدِّره حقَّ قدره إلا موجده كما قال تعالى:﴿وحُمِلَتِ الأرضُ والجبالُ فدُكَّتا دَكَّةً واحدة* فيومئذٍ وقعتِ الواقعة﴾ [٦٩ الحاقة آية ١٤ـ١٥].

فإذا كانت الزلزلة وحدها لا تُحتمل، فما بالك بما يحدث في ذلك اليوم، من الحشر والجزاء والحساب على الأعمال، لدى من لا يغيب عنه مثقال ذرَّة في الأرض ولا في السماء؟.

أحمال وأثقال تنوء بحملها الجبال الراسيات

لقد جاءت ساعة الحساب وحانت ساعة الجزاء فيأتي الجميع بأحمالهم وليتقدموا إلى العرض بأثقالهم وأوزارهم التي اقترفوها وآثامهم التي ارتكبوها يقول الله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ – وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ}[العنكبوت: ١٢-١٣].

إنها الخطايا التي ارتكبوها والآثام التي اقترفوها يأتون بها حاملين لها على ظهورهم وهي تفضحهم أمام الأشهاد جميعاً ولقد جاء تفصيل حقيقة هذه الأحمال في

بيان رسول الله ﷺ فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم، فذكر الغلول فعظمه، وعظم أمره، ثم قال: "لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة، فيقول: يا رسول الله،أغثني فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء، يقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك شيئاً قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك شيئاً، قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رأسه رقاع تخفق، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك.لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت[1]، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك " متفق عليه، وهذا لفظ مسلم، وهو أتم[2].

وأخرج الطبراني في ((معجمه الكبير))، والبيهقي في ((السنن)) والحميدي في مسنده أن الرسول ﷺ استعمل عبادة بن الصامت على الصدقة، ثم قال له: " اتق الله يا أبا الوليد أن تأتي يوم القيامة ببعير تحمله على رقبتك، له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة لها ثؤاج "[3].

وقد ساق ابن كثير في تفسيره الأحاديث المرهبة من الغلول، ومنها أحاديث غلول العمال من الصدقات، وساق حديث أبي حميد الساعدي قال: " استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة، فجاء فقال: هذا لكم وهذا أهدي لي. فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فقال: " ما بال العامل نبعثه على عمل، فيقول: هذا لكم، وهذا لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه، فينظر أيهدى إليه أم لا؟

(١)الصامت: الذهب والفضة.

(٢)مشكاة المصابيح: (٤٠١/٢). ورقم الحديث: ٣٩٩٥. مسلم في صحيح :ك الامارة /ب غلظ تحريم الغلول

(٣)سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٥٣٧/٢)، ورقمه: (٧٥٨). والحديث صحيح.

والذي نفس محمد بيده لا يأتي أحدكم منها بشيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته. إن كان بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر " رواه البخاري ومسلم[1].

شمس حارقة وعرق يغرق الأقوام

ما اقتصرت أهوال يوم القيامة على ذلك بل تدنو الشمس من رؤوس العباد في ذلك اليوم حتى لا يكون بينها وبينهم إلا مقدار ميل واحد، ولولا أنهم مخلوقون خلقاً غير قابل للفناء لانصهروا وذابوا وتبخروا، ولكنهم بعد الموت لا يموتون. ويذهب عرقهم في الأرض حتى يرويها، ثم يرتفع فوق الأرض، ويأخذهم على قدر أعمالهم. ففي صحيح مسلم عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منهم كمقدار ميل ".

قال سليم بن عامر: فوالله ما أدري ما يعني بالميل؟ أمسافة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين.

قال: " فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه. ومنهم من يكون إلى ركبتيه. ومنهم من يكون إلى حقويه. ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً" قال: وأشار رسول الله بيده إلى فيه[2].

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: (يوم يقوم الناس لرب العالمين) [المطففين: ٦]، قال: " يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه "[3].

---

(١)صحيح البخاري باب هدايا العمل حديث رقم:٢٦٢٤صحيح مسلم :كتاب الإمارة حديث رقم:٣٤١٣

(٢)صحيح مسلم، كتاب الجنة، باب في صفة القيامة (٢١٩٦/٤)، ورقمه: (٢٨٦٤).

(٣)رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب قول الله تعالى: (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون) [المطففين:٤]، فتح الباري، (٣٩٢/١١). ورواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب في صفة يوم القيامة، (٢١٩٦/٤)، ورقمه:٢٨٦٢.

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: " يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم "[1].

إنها آثار الخطايا والذنوب ظهرت على أجسادهم على صورة عرق يتصبب من الأبدان، شأنهم في هذا شأن الحياة الدنيا وحينما يساق المجرم إلى ساحات القضاء تجده في حالة من الذل والمهانة والخزي فكذلك حال العباد في هذا اليوم يتصبب العرق من أبدانهم على قدر خطاياهم وذنوبهم فيغرقهم من تحت أقدامهم حتى يصل في الأرض سبعين ذراعاً ويرتفع فوق أجسادهم فمنهم يصل إلى ركبتيه أو إلى وسطه أو إلى صدره أو يلجمه العرق.

نسائم الرحمات

إذا كان الهول شديداً يوم القيامة والخطب جسيماً فالشمس حارقة والعرق تغرق منه الأبدان، والانتظار طويل والموقف عصيب إذا كان الأمر هكذا، فإن الحق سبحانه يرحم من عباده الرحماء، فيتغمد عباده المؤمنين بفضائل عظيمة في مثل هذا الموقف وتهب عليهم نسائم الرحمات فمنها:

- لا يحزنهم الفزع الأكبر

يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون إنهم صنف من عباد الله لا يفزعون عندما يفزع الناس، ولا يحزنون عندما يحزن الناس، أولئك هم أولياء الرحمن الذين آمنوا بالله، وعملوا بطاعة الله استعداداً لذلك اليوم، فيؤمنهم الله في ذلك اليوم، وعندما يبعثون من القبور تستقبلهم ملائكة الرحمن تهدئ من روعهم، وتطمئن قلوبهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ - لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا

(١)المصادر السابقة، والسياق للبخاري.

اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ – لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ)[الأنبياء: ١٠١-١٠٣]، والفزع الأكبر، هو ما يصيب العباد عندما يبعثون من القبور، (إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ) [إبراهيم: ٤٢].

ففي ذلك اليوم ينادي منادي الرحمن أولياء الرحمن مطمئناً لهم (يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ – الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ) [الزخرف: ٦٨-٦٩] وقال في موضع آخر: (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ – الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ – لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [يونس: ٦٢-٦٤].

والسر في هذا الأمن الذي يشمل الله به عباده الأتقياء، أن قلوبهم كانت في الدنيا عامرة بمخافة الله، فأقاموا ليلهم، وأظمؤوا نهارهم، واستعدوا ليوم الوقوف بين يدي الله، فقد حكى عنهم ربهم أنهم كانوا يقولون (إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا) [الإنسان: ١٠]، ومن كان حاله كذلك فإن الله يقيه من شر ذلك اليوم ويؤمنه، (فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا – وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا) [الإنسان: ١١-١٢].

وفي الحديث الذي يرويه أبو نعيم في الحلية عن شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال: " قال الله عز وجل: وعزتي وجلالي، لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين، إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع فيه عبادي، وإن هو خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع فيه عبادي "[1].

وكلما كان العبد أكثر إخلاصاً لربه تبارك وتعالى كان أكثر أمناً في يوم القيامة، فالموحدون الذين لم يلبسوا إيمانهم بشيء من الشرك، لهم الأمن التام يوم

(١)سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٣٧٧/٢)، ورقمه: ٧٤٢، وإسناده حسن.

القيامة، يدلك على هذا جواب إبراهيم لقومه عندما خوفوه بأصنامهم، فأجابهم قائلاً: (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ – الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ)[الأنعام: ٨١–٨٢][١].

–ظل عرش الرحمن والجديرون به

ومن نسائم الرحمات لعباد الله المؤمنين ظل عرشه سبحانه، يقول الحق سبحانه: وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ. يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧–١٨].فهذا العرش المحمول فوق رؤوس العباد جميعاً يجعله الحق سبحانه واحة للرحمة لعباده المؤمنين يستظلون تحتها وتقيهم حر هذه الشمس التي اقتربت من الرؤوس تحترق منها الأجساد وتشوى من لهيبها الأبدان.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، الإمام العادل، وشاب ينشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه[٢]".

إنهم أصحاب الهمم العالية، والعزائم الصادقة، الذين تمثلت فيهم عقيدة الإسلام، وقيمه الفاضلة ، أو قاموا بأعمال جليلة، لها في مقياس الإسلام وزن كبير.فمن هؤلاء:

---

(١)القيامة الكبرى د.عمر سليمان الأشقر١/١٢٠

(٢)صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد، فتح الباري: (١٤٣/٢). ورواه مسلم: (٧١٥/٢)، ورقمه: (١٠٣١) والسياق للبخاري.

الإمام العادل، الذي يملك القوة والسلطان، ولكنه لم يطغ، وأقام العدل بين العباد وفق سلطان الشرع الإلهي. ومنهم الشاب الذي نشأ في عبادة ربه، وألجم نفسه بلجام التقوى، وردع النفس والهوى، فعاش عمره طاهراً نقياً. ومنهم عُمّار المساجد هؤلاء الذين يجدون في رحابها الأنس بالله ومناجاته، فلا يكادون يفارقونها حتى يحنوا إلى رحابها. ومن هؤلاء المتحابون في الله تبارك وتعالى، تجمعهم رابطة الأخوة فيه، ويجتمعون على البر والتقوى والصلاح، ويتفرقون على عمل صالح. ومنهم الذين تعرض لهم فتنة النساء، فيحول خوف الله بينهم وبين الوقوع في الفاحشة. ومنهم المنفق الذي يخلص في دينه لله، فيخفي الصدقة حتى عن نفسه. ومنهم الذي تملأ مخافة الله قلبه، فتفيض عيناه من أجل ذلك وهو وحيد ليس معه أحد(١).

وقد جاءت نصوص كثيرة تدل على إظلال الله للمتحابين فيه في ظل العرش في ذلك اليوم منها حديث أبي هريرة عند مسلم، قال: قال رسول الله ﷺ: " إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي، يوم لا ظل إلا ظلي"(٢).

وفي معجم الطبراني الكبير ومسند أحمد، وصحيح ابن حبان، ومستدرك الحاكم، عن معاذ قال: قال رسول الله ﷺ: " إن المتحابين في الله في ظل العرش"(٣). وفي كتاب «الإخوان» لابن أبي الدنيا بإسناد صحيح عن عبادة بن الصامت، عن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: " حقت محبتي على المتحابين،

(١)القيامة الكبرى د.عمر سليمان الأشقر ١/١١٨.
(٢)رواه مسلم: (١٩٨٨/٤)، ورقمه: ٢٥٦٦.
(٣)صحيح الجامع الصغير: (١٦١/٢) ورقمه: ١٩٣٣.

أظلهم في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظلي "[1].

والإظلال في ظل العرش ليس مقصوراً على السبعة المذكورين في الحديث، فقد جاءت النصوص كثيرة تدل على أن الله يظل غيرهم، وقد جمع ابن حجر العسقلاني الخصال التي يظل الله أصحابها في كتاب سماه: ((معرفة الخصال الموصلة إلى الظلال))[2]. ومن هذه الخصال إنظار المعسر أو الوضع عنه، ففي صحيح مسلم ومسند أحمد عن أبي اليسر عن رسول الله ﷺ قال: " من أنظر معسراً أو وضع عنه، أظله الله في ظله "[3].

وفي مسند أحمد وسنن الدارمي بإسناد صحيح عن أبي قتادة عن رسول الله ﷺ قال: "من نفس عن غريمه أو محا عنه، كان في ظل العرش يوم القيامة"[4]. إنهم أصحاب هذه الهمم العالية والتضحيات والبذل والفداء هم من يستريح في هذه الواحة الغناء تحت ظل عرش الرحمن.

الحوض

من نسائم الرحمات في هذا الموقف العصيب الحوض..الذي أكرم الحق – سبحانه– به نبيه ﷺ حيث يقول الله تعالى:{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ}[الكوثر:١] لقد أكرم الحق سبحانه نبيهﷺ بكرامات كثيرة فلقد أكرمه بالمقام المحمود، وأكرمه كذلك بالحوض المورود إنه الكوثر الذي أكرم الله به عبده ورسوله محمداً ﷺ في الموقف العظيم فلقد أعطاه حوضاً واسع الأرجاء، ماؤه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، يأتيه هذا الماء الطيب من نهر

(١)صحيح الجامع الصغير: (١١٦/٤).
(٢)فتح الباري: (١٤٤/٢).
(٣)صحيح مسلم: (٢٣٠٢/٤)، ورقمه: ٣٠٠٦.
(٤)صحيح الجامع الصغير: (٣٦٤/٤)، ورقمه: ١٤٥٢.

الكوثر، الذي أعطاه لرسوله ﷺ في الجنة، ترد عليه أمة المصطفىﷺ، من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً.

موضع ومكان الحوض:

وقد اختلف أهل العلم في موضعه فذهب الغزالي والقرطبي إلى أنه يكون قبل المرور على الصراط في عرصات القيامة، واستدلوا على ذلك بأنه يؤخذ بعض وارديه إلى النار فلو كان بعد الصراط لما استطاعوا الوصول إليه(١).

واستظهر ابن حجر أن مذهب البخاري أن الحوض يكون بعد الصراط، لأن البخاري أورد أحاديث الحوض بعد أحاديث الشفاعة، وأحاديث نصب الصراط(٢) ".

وما ذهب إليه القرطبي أرجح، وقد استعرض ابن حجر أدلة الفريقين في كتابه القيم: ((فتح الباري))(٣).

هذا وإن الأحاديث الواردة في الحوض متواترة، لا شك في تواترها عند أهل العلم، وقد رواها عن الرسول ﷺ أكثر من خمسين صحابياً، وقد ذكر ابن حجر أسماء رواة أحاديثه من الصحابة(٤).

ونحن نسوق هنا بعض هذه الأحاديث التي أوردها الخطيب التبريزي في مشكاته(٥):

١- عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: " حوضي مسيرة شهر،

(١)انظر تذكرة القرطبي: ٣٠٢.
(٢)انظر فتح الباري: (٤٦٦/١١).
(٣)فتح الباري: (٤٦٦/١١).
(٤)فتح الباري: (٤٦٨/١١).
(٥)مشكاة المصابيح: (٦٨/٣).

وزواياه سواء[١]. ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من يشرب منها فلا يظمأ أبداً ". متفق عليه[٢].

٢- وعن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: " إن حوضي أبعد من أيلة[٣]من عدن لهو أشدُّ بياضاً من الثلج، وأحلى من العسل باللبن، ولآنيته أكثر من عدد النجوم، وإني لأصد الناس عنه كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه ". قالوا: يا رسول الله ! أتعرفنا يومئذ؟ قال: " نعم لكم سيماء[٤] ليست لأحد من الأمم، تردون علي غراً محجلين من أثر الضوء ". رواه مسلم.

٣- وفي رواية له (٩) عن أنس. قال: " ترى فيه أباريق الذهب والفضة كعدد نجوم السماء ".

٤- وفي أخرى له عن ثوبان، قال: سئل عن شرابه. فقال: " أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل يغت[٥] فيه ميزابان يُمدَّانه من الجنة، أحدهما من ذهب والآخر من وَرِق ".

٥- وفي «صحيح مسلم» عن أنس بن مالك ﷺ قال: بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذا أغفى إغفاءةً ثم رفع رأسه متبسمًا، قلنا: ما أضحك يا رسول الله! قال: «لقد أنزلت عليَّ آنفًا سورة» فقرأ:{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ *إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ}[سورة الكوثر]، ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه وعدنيه ربي عز وجل،

(١)أي مربع لا يزيد طوله عن عرضه شيئاً.

(٢) رقم (٦٥٧٩)، كتاب الرقاق، بابٌ: في الحوض.

(٣)هي مدينة العقبة في الأردن.

(٤)السيماء: العلامة.

(٥)يَغت، أي: يصُبَ ويسيل.

عليه خير كثير، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم في السماء، فيختلج العبد منهم، فأقول: رب إنه من أمتي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدث بعدك»[١].

والمعنى في هذا الحديث – كما ذكر شارح «الطحاوية» – أن نهر الكوثر – وهو ممتد من الجنة – يشخب – أي يسيل – منه ميزابان ليصبا في الحوض والذي هو في العرصات[٢].

– وفي «صحيح مسلم»[٣] عن أبي ذر الغفاري ﷺ قال: قلت: يا رسول الله! ما آنية الحوض؟ قال: «والذي نفس محمد بيده، لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها في الليلة المظلمة المصحية، آنيةُ الجنة، من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه، يشخب فيه ميزابان من الجنة، من شرب منه لم يظمأ، عرضه مثل طوله، ما بين عمان إلى أيلة[٤]، وماؤها أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل».

– وفي رواية الإمام أحمد: «حوضي كما بين عدن وعَمَّان أبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحًا من المسك، أكوابه مثل نجوم السماء» الحديث صححه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله وغيره[٥].

– وفي «صحيح البخاري» و «مسلم» والسياق له عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «تَرِدُ عليَّ أمتي الحوض وأنا أذُودُ الناس عنه، كما يذود الرجلُ

(١) «صحيح مسلم» (٤٠٠)، كتاب الصلاة، باب: حجة من قال البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة.
(٢) انظر: «شرح الطحاوية» (ص٢٧٩).
(٣) رقم (٢٣٠٠)، كتاب الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته.
(٤) أيلة – بالفتح –: مدينةٌ على ساحل بحر القُلْزُم [الأحمر] مما يلي الشام. انظر: «معجم البلدان» (٢٩٢/١) للحموي.
(٥) «المسند» (٢٠/٩) رقم (٦١٦٢).

إبلَ الرجلِ عن إبلِه، قالوا: يا نبي الله! تعرفنا؟ قال: نعم، لكم سيمًا ليست لأحدٍ غيركم، تردون غرًا محجلين من آثار الوضوء، وليصدن عني طائفة منكم، فلا يصلون، فأقول: يا رب! هؤلاء من أصحابي، فيجيبني ملك، فيقول: وهل تدري ما أحدثوا بعدك»[1].

الذين يردون الحوض والذين يُذادون عنه[2]

وردت أحاديث كثيرة بيَّن فيها الرسول ﷺ الذين يردون على حوضه، والذين يمنعون من الشرب منه، ونحن نذكر لك بعض ما أورده ابن الأثير منها في جامع الأصول[3]:

١- روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " أنا فرطكم على الحوض، وليرفعن إليَّ رجال منكم، حتى إذا أهويت إليهم لأناولهم اختلجوا دوني[4]، فأقول: أي رب، أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك؟ ".

٢- ورويا أيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول اللهﷺ قال: " ليردن على الحوض رجال ممن صاحبني، حتى إذا رأيتهم، ورفعوا إليّ، اختلجوا دوني، فلأقولن: أي رب، أصيحابي، أصيحابي، فليقالن لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ".وفي رواية " ليردن عليَّ ناس من أمتي.. الحديث، وفي آخره: فأقول: سحقاً لمن بدل بعدي " أخرجه البخاري ومسلم.(مسلم كتاب الفضائل حديث رقم:٤٢٥٩

(١) «البخاري» (٦٥٨٥)، كتاب الرقاق، باب: في الحوض، «مسلم» (٢٤٧)، كتاب الطهارة، باب: استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء.

(٢)انظر القيامة الكبرى د.عمر سليمان الأشقر ٢٠١/١ وما بعدها.

(٣)جامع الأصول: ٤٦٨/١.

(٤)اختلجوا : أخذوا بسرعة .

٣- ورويا عن أبي حازم رحمه الله عن سهل بن سعد رضي الله عنه، قال: سمعت النبيﷺ يقول: " أنا فرطكم على الحوض، من ورد علي شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً، وليردن عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفونني، ثم يحال بيني وبينهم، قال أبو حازم: فسمع النعمان بن أبي عياش وأنا أحدثهم هذا الحديث، فقال: هكذا سمعت سهلاً يقول؟ فقلت: نعم، قال: وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته يزيد، فيقول: فإنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقاً سحقاً لمن بدل بعدي ". أخرجه البخاري ومسلم.بالفاظ مسلم كتاب الفضائل حديث رقم:٤٢٥٩

٤- ولهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: " يرد عليَّ يوم القيامة رهط من أصحابي – أو قال: من أمتي – فيحلَّؤُون[١] عن الحوض، فأقول: يا رب، أصحابي، فيقول: إنه لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى " وفي رواية ((فيجلون)) أخرجه البخاري ومسلم.(بخاري كتاب الرقاق حديث رقم:٦٠٩٨

وللبخاري: أن رسول الله ﷺ قال: " بينما أنا قائم على الحوض، إذا زمرة، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم، فقال: هلم، فقلت: إلى أين؟ فقال: إلى النار والله، فقلت: ما شأنهم؟ فقال: إنهم قد ارتدوا على أدبارهم القهقرى، ثم إذا زمرة أخرى، حتى عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال لهم: هلم، قلت: إلى أين؟ قال: إلى النار والله، قلت: ما شأنهم؟ قال: إنهم قد ارتدوا على أدبارهم، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم " [٢].

ولمسلم: أن رسول الله ﷺ قال: " ترد عليَّ أمتي الحوض، وأنا أذود الناس

(١)يحلؤون، أي: يدفعون ويطردون.

(٢)همل النعم: الإبل الضالة. والمعنى أن الناجي منهم قليل.

عنه، كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله، قالوا: يا نبي الله تعرفنا؟ قال: نعم، لكم سيما ليست لأحد غيركم، تردون غراً محجلين من آثار الوضوء، وليصدن عني طائفة منكم، فلا يصلون، فأقول: يا رب، هؤلاء من أصحابي، فيجيء ملك، وهل تدري ما أحدثوا بعدك؟ "[1].

وفي أخرى: " إن حوضي أبعد من أيلة من عدن، لهو أشد بياضاً من الثلج، وأحلى من العسل باللبن، ولآنيته أكثر من عدد النجوم، وإني لأصد الناس عنه كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه، قالوا: يا رسول الله، أتعرفنا يومئذ؟ قال: نعم، لكما سيما ليست لأحد من الأمم، تردون علي غراً محجلين ".

وقد أورد القرطبي في التذكرة بعض الأحاديث التي سقناها ثم قال: " قال علماؤنا رحمة الله عليهم أجمعين: فكل من ارتد عن دين الله أو أحدث فيه مالا يرضاه الله، ولم يأذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض، المبعدين عنه، وأشدهم طرداً من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم كالخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها، فهؤلاء كلهم مبدلون.

وكذلك الظلمة المسرفون في الجور وتطميس الحق وقتل أهله وإذلالهم والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع.

ثم البعد قد يكون في حال، ويقربون بعد المغفرة إن كان التبديل في الأعمال، ولم يكن في العقائد، وعلى هذا يكون نور الوضوء يعرفون به، ثم يقال لهم: سحقاً، وإن كانوا من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ يُظهرون الإيمان

(١) «البخاري» (٦٥٨٥)، كتاب الرقاق، باب: في الحوض، «مسلم» (٢٤٧)، كتاب الطهارة، باب: استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء.

ويسرون الكفر فيأخذهم بالظاهر، ثم يكشف لهم الغطاء فيقال لهم: سحقاً سحقاً، ولا يخلد في النار إلا كل جاحد مبطل، ليس في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان"[1].

الشفاعة العظمى

نقصد بالشفاعة العظمى تلك المكانة والمنزلة التي خص الله بها نبيه من بين أنبيائه ورسله جميعاً والتي يرغب فيها كل البشر لرسول الله ﷺ حتى الأنبياء كي يشفع لهم عند ربه سبحانه حتى يبدأ الفصل والقضاء ولكن قبل الحديث عنها نقدم لها بتوطئة لتعريف الشفاعة وأنواعها بإيجاز لحاجة سياق الحديث إلى ذلك:

الشفاعة:

هذا المبحث تحته نقاط عدة:

التعريف اللغوي

يقول الراغب في مفرداته: الشفع: ضم الشيء إلى مثله، ويقال للمشفوع: شفع، وقوله تعالى: {والشفع والوتر}[الفجر/٣]، قيل: الشفع المخلوقات من حيث إنها مركبات، كما قال: {ومن كل شيء خلقنا زوجين}[الذاريات/٤٩]، والوتر: هو الله من حيث إن له الوحدة من كل وجه.

والشفاعة: الانضمام إلى آخر ناصرا له وسائلا عنه، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى. ومنه: الشفاعة في القيامة. قال تعالى: {لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا}[مريم/٨٧]، {لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن}[طه/١٠٩]، {لا تغني شفاعتهم شيئا}[النجم/٢٦]، {ولا يشفعون إلا لمن ارتضى}[الأنبياء/٢٨]، {فما تنفعهم شفاعة الشافعين}[المدثر/٤٨]، أي: لا يشفع لهم، {ولا يملك الذين يدعون من دونه

(١)التذكرة للقرطبي: ص ٣٠٦.

الشفاعة}[الزخرف/٨٦]، {من حميم ولا شفيع}[غافر /١٨]، {من يشفع شفاعة حسنة}[النساء/٨٥]، {ومن يشفع شفاعة سيئة}[النساء/٨٥]، أي: من انضم إلى غيره وعاونه، وصار شفعا له، أو شفيعا في فعل الخير والشر، فعاونه وقواه، وشاركه في نفعه وضره. وقيل: الشفاعة ههنا: أن يشرع الإنسان للآخر طريق خير، أو طريق شر فيقتدي به، فصار كأنه شفع له(١).

أنواع الشفاعة

١- الشفاعة العظمى: وهي المقام المحمود، الذي يرغب الأولون والآخرون فيه إلى الرسولﷺ ليشفع إلى ربه كي يخلص العباد من أهوال المحشر.

٢- شفاعته في الإذن للمؤمنين بدخول الجنة.

٣- الشفاعة في أقوام يدخلون الجنة بغير حساب.

٤- شفاعة الرسولﷺ في أقوام تساوت حسناتهم وسيئاتهم فيشفع فيهم ليدخلون الجنة، وفي آخرين قد أمر بهم إلى النار أن لايدخلوها.

٥- الشفاعة في أهل الذنوب من الموحدين الذين دخلوا النار.

٦- شفاعته ﷺ في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم.

٧-شفاعة غير الأنبياء من الصديقين والشهداء والإخوان والأصدقاء.

الشفاعة العظمى:

لقد جمع الحق سبحانه الأولين والآخرين في صعيد واحد والناس بين فريقين مؤمن بربه سبحانه مصدق بآياته فهو في ظل عرش الرحمن سبحانه وتعالى في

(١)مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني مادة:. شفع.

هذا الموقف، وكافر بربه ومكذب لرسله فهو في كربه وغمه وحزنه وهمه تحت حر الشمس ولهيبها يشوى الجلود والعرق تغرق منه الأبدان.

ويطول الموقف على العباد في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ويشتد بهم الكرب ولا يجدون مخرجاً من هذا الموقف إلا أن يلجئوا لأنبياء الله ورسله فهم أقرب العباد إلى ربهم سبحانه، ولقد كانوا في الحياة الدنيا حلقة الوصل بينهم وبين ربهم سبحانه، فيلجئون إليهم في هذا الموقف العصيب كي يشفعوا لهم عند الحق سبحانه فكلهم يظهر ضعفه وخوفه وعدم قدرته على ذلك ويلقيها كل نبي إلى من بعده حتى يصلوا إلى رسول الله محمد ﷺ فيقول أنا لها أنا لها ويخر ساجداً تحت العرش، يثني على ربه ثناءً لم يثن عليه به أحد من قبل حتى ينادى يا محمد أن ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع.

فهذه هي الشفاعة العظمى التي أعطاها الله لنبيه وهو المقام المحمود الذي خص الله به رسولهﷺ والذي أخبرنا عنه بنفسه ﷺ وعن هذا الموقف يحدثنا أبو هريرة رضي الله عنه فيقول: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أُتِيَ بِلَحْمٍ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ – وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ– فَنَهَشَ مِنْهَا نَهْشَةً،ثُمَّ قَالَ:

(أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ الأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لاَ يُطِيقُونَ وَلاَ يَحْتَمِلُونَ. فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِآدَمَ. فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمَ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ. خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ. وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ. وَأَمَرَ الْمَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ. اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ. أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ

مِثْلَهُ. وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ. وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ. فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ. وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا. اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ. أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ. فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ. وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ. وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي. نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ.

فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ. اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ. أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ. فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ. وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ. وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاَثَ كَذَبَاتٍ فَذَكَرَهُنَّ أَبُو حَيَّانَ فِي الْحَدِيثِ نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى.

فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَضَّلَكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ عَلَى النَّاسِ. اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ. أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ. وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ. وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا. نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي. اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ.

فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ. وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا. اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ. أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ. وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ.

فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتِمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ

لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟

فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ.

ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى)[1]*.

إن الكرب في هذا اليوم عظيم وإن الغم والهم والفزع والخوف تنخلع من أجله القلوب من الصدور، والأنبياء يفرون من موقف الشفاعة في هذا اليوم حيث يقول كل منهم نفسي نفسي إلا رسول الله ﷺ، بل إن شدة الكرب تنسي كل نبي من الأنبياء رسالته وما بعث به إلى قومه حيث يقول الحق سبحانه:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾[المائدة: ١٠٩].

ومن فضل الله على البشرية جمعاء تلك المكانة التي أعطاها الله لرسوله ﷺ فلا يفزع من موقف الشفاعة أمام الله سبحانه وتعالى، فكل الأنبياء يقولون نفسي نفسي إلا رسول الله ﷺ فإنه يقول أمتي أمتي، وهذا من فضل الله على عباده، ومن رحمته بهم، وصدق الحق سبحانه حيث يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ويشفع رسول الله ﷺ للبشرية جمعاء حتى تستريح من هذا العناء وتستريح من

(١)البخاري. كتاب تفسير القرآن. حديث رقم ٤٣٤٣.

هول الموقف ومن شدة العذاب، وتعرف مصائرها بعد طول انتظار، وشدة معاناة فإما إلى جنات الخلد، أو إلى عذاب جهنم وبئس المصير.

وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء

بعد شفاعة رسول الله ﷺ يأذن المولى سبحانه لبدء الفصل والقضاء ولقد تناولت هذا الموقف آيات عدة وأحاديث كثيرة منها:

{يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِي لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتْ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً* يَوْمَئِذٍ لا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً* يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً* وَعَنَتْ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً* وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً}[طه١٠٨-١١٢].

{هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمْ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنْ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ}[البقرة:٢١٠].

{وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً* وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى* يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي}[الفجر:٢٢-٢٤].

بمنتهى القوة يصور القرآن الكريم هذا المشهد من مشاهد يوم القيامة.إنه وصف دقيق، وتصوير حي يذيب الجلود، ويصهر العظام، وتنخلع لهوله القلوب، بل تكاد تفارق الأجسام. ألا ترى كيف تعمد دولة ما لحشد كل قواتها وطاقاتها وجحافلها في عرض عسكري مهيب لتلقي الرعب والفزع في قلوب خصومها حين يرون هذا الحشد الهائل من أدوات الدمار الشامل؟!

وهذا هو المشهد نفسه، لكن مع الفارق الضخم الكبير، أعني هذا هو العرض الذي أعده القوي الجبار، المتين القهار للعاصين والكفار.فلم يكد الناس يفرغون من

أرض تدك دكا وإذا هم بحشد إلهي رهيب ومهيب.

ما زلت ترى الناس سكارى. وما هم بسكارى، فإذا هم أمام موكب جليل عظيم تمشى لهوله القلوب بين الضلوع، فقد جاء ربك مجيئاً يليق به سبحانه، وإياك أن تؤول المجيء بشيء غير المجيء، فكل شيء في هذا اليوم فوق تصور العقول، لكنه واقع لا محالة على الوجه والكيفية التي تقتضيها حكمة ربنا سبحانه وعلمه وقدرته!

وجاء الملك صفا صفاً، في خشوع وخضوع، وعنت الوجوه للحي القيوم فلا تسمع إلا همساً، وبينما الناس وجلون، يحيط بهم الفزع من كل مكان وهم أمام آلاف مؤلفة من الملائكة خاشعين بين يدي الرحمن، ينتظرون أوامر الواحد الديان، في يوم لا ملك فيه إلا للواحد القهار، ينتظرون لا يدرون ما يفعل بهم، فتمر بهم اللحظات كأنها الجبال طولاً، والجبال ثقلاً، والسحاب بطئاً، ثم بعد ذلك كله، وبعدما ظنوا أن الأزمة إلى انفراج، وأن الغمة إلى انكشاف، إذا بجهنم وقد جيء بها يجرها ملائكة غلاظ شداد، ما بالها لا تصبر على هؤلاء الذين كانوا ينكرونها ويكذبون بها لم تصبر حتى يذهبوا إليها فسارعت هي إليهم!

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا)*[1].

فهاهم، وها هي.وجهاً لوجه! فهل آن لهم أن يؤمنوا؟ نعم. ربما ولكن لات حين إيمان، وهيهات. هيهات، أن ينفعهم إيمانهم، ففي هذا اليوم: "لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: "يومئذ يتذكر الإنسان" فلا ينفعه ندم على ما فرط أو ما كان، حيث جاءته الرسل بالكتب والآيات البينات

(١)مسلم. كتاب الجنة ووصف نعيمها وأهلها. حديث رقم ٥٠٧٦.

تخاطب عقله فيوصده، وتخاطب قلبه فيغلقه، تفتح سمعه وبصره فيغلقه "وأنى له الذكرى".

وحين يرى الهول شاخصاً، ويرى جهنم مقبلة تستعجل وقودها من كفار الناس وفساقهم حينئذ "يقول يا ليتني قدمت لحياتي" يا الله! أصبحت الآخرة حياته بعد أن كان لها من المنكرين وبها من المكذبين! وأصبح يتمنى لو أنه قدم عملاً صالحاً لهذه الحياة الحقيقية الباقية، يقول متحسراً وقلبه فارغ من شدة الفزع والهلع: "يا ليتني قدمت لحياتي". ولكن. هل تنفع شيئاً ليت؟

وفي موضع آخر حيث يقول تعالى: ﴿فإذا جاءت الصاخة، يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه، ووجوه يومئذ مسفرة، ضاحكة مستبشرة، ووجوه يومئذ عليها غبرة، ترهقها قترة، أولئك هم الكفرة الفجرة﴾ [عبس: ٣٣ -٤٢].

الصاخة: هي الصيحة تصم لشدتها، ومنه سميت القيامة الصاخة"[١].

وقد سميت بهذا الاسم لما تحدثه من فزع وهلع يخلع القلوب، ليس فقط، بل ويسلخ الإنسان عن أقرب الناس إليه.!

"وإذا" ظرف للزمان المستقبل فهي آتية حتماً، وكل آت قريب، وهي واقعة لا محالة -وقد سبق بيان ذلك- فإذا جاءت يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، وإنما يفر الإنسان عادة من شيء يخافه على نفسه، فلم إذن يفر من هؤلاء الذين كانوا أقرب الناس إلى نفسه، بل كانوا أقرب إلى نفسه من نفسه، فلم شغل عنهم اليوم بنفسه؟ وإذا عشنا هذا المشهد الأخروي وكأنه واقع الآن فلن نجد غرابة إزاء كل هذه الأحداث في أن يفر المرء اليوم ممن كانوا بالأمس يفر إليهم، بل

(١) مختار الصحاح: صخ.

وممن كانوا يؤثرهم على نفسه بروحه وماله ونفسه!

ولأن ما كان يحدث بالأمس القريب في الحياة الدنيا يختلف تماماً عما يحدث في هذا اليوم، فلكل امرئ فيه شأن يغنيه، ولئن كانت الأم تضحي بنفسها في الحياة الدنيا رخيصة في سبيل ابنها. فإنها فعلت ذلك وهي تعلم أنها تضحي بحياة عاجلة فانية، وأنها ستموت مهما كان بقاؤها. ولكنها اليوم في موقف مختلف، إنها الحياة الباقية الخالدة، فإما جنة أبداً، وإما نار أبداً، وهي لا ولن تفرط في الجنة لا من أجل ولدها ولا صاحبها ولا غيرهم. بل: "يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه، وفصيلته التي تؤويه، ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه. كلا إنها لظى...."

لقد أذن الحق سبحانه للفصل والقضاء بين عباده فإلى ساحات العرض والفصل والقضاء

ساحة العرض والفصل والقضاء:

إن ساحة الفصل والقضاء بين العباد في هذا اليوم مثلها كساحات القضاء في الحياة الدنيا ولكن مع الفارق فالعرض في ساحات القضاء في الدنيا أمام قاض من البشر يطلع على بعض جوانب القضية ويخفى عنه بعضها، ولكن العرض هنا أمام الملك الديان، والأمر صورته تلك الآية {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨)} [الحاقة] وفي ساحة العرض هذه فيها مشاهدها ومواقفها والكثير من أحداثها ومواقفها سنحاول رسم صورة متكاملة لأحداثها ووقائعها من خلال هذه النقاط:

- القواعد التي يتم على أساسها حساب العباد يوم القيامة:

من خلال النظر والتأمل في كتاب الله تعالى وفي حديث رسول الله ﷺ نجد بأن الحق سبحانه يحاسب على العباد في يوم القيامة على أسس ثابتة وقواعد

محددة، فلا ظلم في هذا اليوم ولا غبن، حيث يقول الحق سبحانه ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾.

ولذلك فإنه من نظرتنا إلى موقف الحساب في يوم القيامة من الممكن أن نستنبط مجموعة من القواعد المحددة التي على أساسها يحاسب العباد في يوم القيامة وبيانها على النحو التالي:

القاعدة الأولى: العدل التام الذي لا يشوبه ظلم: قال تعالى: ﴿ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾[البقرة: ٢٨١] فيوفيهم الحق عز وجل يوم القيامة أجورهم كاملة غير منقوصة، وإن كان مثقال حبة من خردل، قال تعالى: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾[النساء: ٤٠]. وقال تعالى في موضع آخر﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾[الزلزلة: ٧-٨].

ويقول سبحانه: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾.

ثم يكون الجزاء الحق من الحق تبارك وتعالى ﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا﴾[النساء: ١٢٤].

القاعدة الثانية: لا يؤخذ أحد بجريرة غيره: إن العباد يحشرون يوم القيامة فرادى ويحاسبون فرادى كذلك، فلا يحاسب فرد عن آخر، ولا يتحمل واحد من الناس جرم ذنب آخر، إلا إذا كان قد تسبب في إغوائه وإضلاله، حيث يقول سبحانه:﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا* لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا* وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣-٩٥]. ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٣].

قال تعالى: ﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾[الأنعام: ١٦٤].

وهذا هو العدل الذي لا عدل فوقه، فالمهتدي يقطف ثمار هدايته، والضال ضلاله على نفسه: ﴿من اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ [الإسراء:١٦].

وهذه القاعدة العظيمة التي اتفقت الرسالات السماوية على تقريرها، قال تعالى: ﴿أم لم ينبأ بما في صحف موسى، وإبراهيم الذي وفى، ألا تزر وازرة وزر أخرى، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾[النجم: ٣٦-٤٠].

وقد يعارض البعض هذا القول بقوله تعالى: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم﴾[العنكبوت:١٣].

وقوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ﴾[النحل: ٢٥].

وهذا موافق لما تقدم وليس بمعارض، فالإنسان يتحمل إثم ما ارتكب من ذنوب وإثم الذين أضلهم بقوله وفعله، كما أن دعاة الهدى ينالون أجر ما عملوه ومثل أجر من اهتدى بهديهم، فإضلال هؤلاء لغيرهم هو فعل يعاقبون عليه كذلك.

يقول رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا. وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا)[1] *.

(١)سنن النسائي. كتاب الزكاة. حديث رقم ٢٥٠٧.

القاعدة الثالثة: إطلاع العباد على ما قدموه من أعمال:

من إعذار الله لخلقه، وعدله في عباده أن يطلعهم على ما قدموه من صالح أعمالهم وطالحها، وذلك حتى يحكموا على أنفسهم بأنفسهم، فلا يكون لهم بعد ذلك عذر عند الله تعالى أو حجة، قال تعالى: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خيرا محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا﴾[آل عمران: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾[الإنفطار: ٥]. وقال: ﴿ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا﴾[الكهف: ٤٩].

وإطلاع العباد على ما قدموه يكون بإعطائهم صحائف أعمالهم. وقراءتهم لها كما قال تعالى: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾[الإسراء: ١٢-١٣].

وهو كتاب شامل لجميع الأعمال كبيرها وصغيرها ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولنا يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا﴾[الكهف: ٤٩].

القاعدة الرابعة: مضاعفة الحسنات دون السيئات:

ومن رحمة المولى سبحانه بعباده وتفضله عليهم أنه سبحانه يضاعف لهم الحسنات دون السيئات ﴿إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم﴾[التغابن:١٧].

وأقل ما تضاعف به الحسنة عشرة أضعاف ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾، أما السيئة فلا تجزى إلا مثلها ﴿ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾ [الأنعام: ١٦٠]

ويقول سبحانه: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ

سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦١].

وهذا مقتضى عدله تبارك وتعالى، بل إن هذا من كامل عفوه وفضله ورحمته بعباده جميعاً، حيث جعل السيئة بمثلها والحسنة يضاعفها لصاحبها أضعافاً مضاعفة.

قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أَنَّهُ قَالَ:(الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا أَوْ أَزِيدُ، وَالسَّيِّئَةُ بِوَاحِدَةٍ أَوْ أَغْفِرُ، وَلَوْ لَقِيتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا مَا لَمْ تُشْرِكْ بِي لَقِيتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً. قَالَ وَقُرَابُ الأَرْضِ مِلْءُ الأَرْضِ)[1].

وقد تصل مضاعفة الحسنة إلى سبعمائة ضعف، وأكثر من ذلك كما قال تعالى:﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع﴾ [البقرة: ٢٦١].

ومن الأعمال التي أخبر عنه ﷺأنها تضاعف قراءة القرآن والذكر والإنفاق والجهاد والحج والصوم والصبر وغيرها كثير مما لم نحصره هنا.

وتتجلى رحمة الله وفضله على عباده أن المؤمن الذي يهم بفعل الحسنة ثم لا يفعلها تكتب له حسنة تامة، والذي يهم بفعل السيئة ثم لا يفعلها مخافة لله تكتب له حسنة تامة.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عَنْهمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: قَالَ:(إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ.وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ

(١)المسند للإمام أحمد بن حنبل. مسند الأنصار. حديث رقم ٢٠٣٥٣.

لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً)[1].

ومن واسع رحمته وفضله تبارك وتعالى أن يبدل السيئات حسنات كما قال تعالى ﴿فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾ فأي فضل بعد هذا الفضل؟

القاعدة الخامسة: إقامة الشهود على الكفرة والمنافقين:

إن الحق سبحانه لا تخفي عليه خافية في الأرض ولا في السماء، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وعلمه بظاهر العباد كعلمه بسرهم سواء بسواء، حيث يقول الحق سبحانه: ﴿ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه﴾ [يونس: ٦١] وقال ﴿إن الله كان على كل شيء شهيدا﴾[الأحزاب: ٥٥].

ومع ذلك فإن الحق سبحانه لا يحاسب عباده بمقتضي علمه بهم وكشفه لأحوالهم. بل إنه سبحانه يحب الإعذار إلى خلقه فيبعث من مخلوقاته شهداء على المكذبين الجاحدين حتى لا يكون لهم عذر كما قال تعالى ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾[النساء: ٤١].وقوله ﴿ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم﴾[القصص: ٧٥].

وقال تعالى ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾[ق:٢١]. ونظراً لأهمية هذه الشهادة سنخصص لها مبحثاً مستقلاً بعد ذلك.

هذا عن القواعد التي سيحاسب على أساسها العباد يوم القيامة[2]، أما عن الأعمال التي سيحاسبون عليها ويُسألون عنها فهي على النحو التالي:

الأعمال التي يحاسب عليها العباد في يوم القيامة

إن من سنة الله في خلقه أنهم قد خلقهم في حياتهم الدنيا ليبلوهم أيهم أحسن

(١)البخاري. كتاب الرقاق. حديث رقم ٦٠١٠.

(٢) موقع المأوى على شبكة المعلومات الدولية www.almawa.net.

عملا، وجعل الدنيا داراً للعمل والآخرة داراً للحساب والجزاء، حيث يُسأل العبد فيها عن كل ما قدمت يداه، ويحاسب عن كل ما بدر منه في حياته الدنيا، فيُسأل عن عقيدته وإيمانه وكفره عن عمره وشبابه عن صحته وعافيته عن نفسه وولده، ولا يبقى في حياته أمر إلا وقد سُئل عنه، ولا يمر من عمره لحظة إلا وكان الحساب عليها عسير كل ذلك يُسأل عنه العبد في هذا اليوم وتفصيل ذلك على النحو التالي:

أولا: الكفر والشرك:

وأعظم ما يُسأل عنه العباد هو كفرهم وشركهم، فيسألهم تعالى عن الشركاء والأنداد الذين كانوا يعبدونهم من دون الله، وعن أربابهم وآلهتهم التي افتروها على الله، كما قال تعالى: ﴿وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون، من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون﴾[الشعراء:٩٣]. وفي موضع آخر يقول سبحانه ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ [القصص:٧٤].

ويُسألون عن عبادتهم لغير الله من تقديم القرابين للآلهة التي كانوا يعبدونها ونحر الذبائح بأسمائها ﴿ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم تالله لتُسألن عما كنتم تفترون﴾[الأنعام: ٥٦].

ويسألون عن تكذيبهم للرسل، وكفرهم بالأنبياء والكتب ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين، فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون﴾ [القصص: ٦٥-٦٦].

ثانيا: ما عمله في دنياه:

كذلك يسأل العبد في يوم القيامة عن جميع أعماله التي عملها في الحياة الدنيا، عن حسناته وسيئاته، وعن غدراته وفجراته، وعن آثامه ومعاصيه، عن كل ما بدر

منه في حياته الدنيا، كما قال تعالى: ﴿فوربك لنسئلنهم أجمعين، عما كانوا يعملون﴾ [الشعراء:٩١-٩٢]. وقال:﴿فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين﴾ [الأعراف:٦].

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (لاَ تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ:عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ. وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ. وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ)[1] *.

والمتأمل في الحديث يعلم السر في دعوة الرسول صلى الله عليه المسلم إلى التخفف من المال، فكلما كثر مال العبد كثر حسابه وطال، وكلما قل ماله خف حسابه وأسرع به إلى الجنة، وقد أخبر عليه الصلاة والسلام أن فقراء المهاجرين يسبقون أغنياءهم بخمسمائة عام فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (يَدْخُلُ الْفُقَرَاءُ الْجَنَّةَ قَبْلَ الأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِ مِائَةِ عَامٍ نِصْفِ يَوْمٍ)[2].

ثالثا: النعيم الذي يتمتع به:

يسأل الله عباده في يوم القيامة عن النعيم الذي خولهم إياه في الدنيا كما قال تعالى ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ [التكاثر:٨]. والمقصود بالنعيم شبع البطون، وبارد الماء، وظلال المساكن، واعتدال الخلق، ولذة النوم، وقال سعيد بن جبير: حتى شربة عسل. وقال مجاهد: عن كل لذة من لذات الدنيا. وقال الحسن البصري: من النعيم الغداء والعشاء. وقال أبو قلابة: من النعيم أكل السمن والعسل بالخبز النقي. وعن ابن عباس: النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار.

وهذه الذي فسروها به من باب التنوع في التفسير، وإلا فإن أصناف النعيم

(١) سنن الترمذي. كتاب صفة القيامة. حديث رقم ٢٣٤٠.

(٢) سنن الترمذي. كتاب الزهد حديث رقم ٢٢٧٦.

كثيرة لا تحصى، كما قال تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾[إبراهيم: ٣٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : (إن أول ما يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال له: ألم نصح لك جسمك؟ ونروك من الماء البارد)[١].

وبعض الناس لا يستشعر النعم العظيمة التي وهبه الله إياها، فلا يدرك النعمة التي في شربة الماء ولقمة الطعام، وفيما وهبه الله. فقد سأل رجل عبد الله بن عمرو بن العاص فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم. قال: فأنت من الأغنياء. قال: فإن لي خادما. قال: فأنت من الملوك[٢].

وروى ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ:(نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ)[٣].ومعنى هذا أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين، ولا يقومون بواجبهما.

وجاء في سنن ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال:(لا بأس بالغنى لمن اتقى الله عز وجل، والصحة لمن اتقى خير من الغنى، وطيب النفس من النعيم)[٤].

وروي عنه ﷺ أنه قال (إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها)[٥].

رابعا: العهود والمواثيق:

يسأل الله عباده عما عاهدوه عليه ﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون

(١) سنن الترمذي. كتاب تفسير القرآن. حديث رقم ٣٢٨١.
(٢) مسلم. كتاب الزهد والرقائق. حديث رقم ٥٢٩٠.
(٣) البخاري. كتاب الرقائق. حديث رقم ٥٩٣٣.
(٤) سنن ابن ماجه. كتاب التجارات. حديث رقم ٢١٣٢.
(٥) مسلم كتاب الذكر والدعاء. حديث رقم ٤٩١٥.

الأدبار وكان عهد الله مسؤولا﴾ [الأحزاب: ١٥].

وكل عهد مشروع بين العباد فإن الله سائل العبد عن الوفاء به ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا﴾ [الإسراء: ٣٤].

خامسا: السمع والبصر والفؤاد

يسأل الله العباد عن جميع ما يقولونه، ولذلك حذرهم من القول بلا علم ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾ [الإسراء: ٣٦].

قال قتادة: لا تقل رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم فإن الله سائلك عن ذلك كله.

حجة الله البالغة

إن الأمر لله –سبحانه– والملك التام له ويتجلي هذا على أتم أحواله وأكمل أوضاعه في يوم القيامة فهو المحيي والمميت، وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، وبرغم ذلك كله فحتى لا تبقى لأحد عند الله حجة في هذا اليوم فمن خلال النظر في الأسلوب والطريقة التي يتم بها الفصل والحساب بين العباد نرى مجموعة من الضوابط التي يتضح من خلالها بأن الحق –سبحانه– أراد أن يلزم العباد الحجة من أنفسهم، وألا يبقى لهم بعد ذلك من عذر وليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حيي عن بينة وأن الله لسميع عليم.

هذه الضوابط تتمثل في أمور كثيرة منها:

١– شهود الإثبات. ٢– الصحائف والسجلات. ٣– الوزن والميزان.

١– شهود الإثبات:

ونقصد بشهود الإثبات مجموعة الشهداء الذين يقيمون الحجة على العباد في

هذا الموقف، حينما تعرض قضيتهم بين يدي أحكم الحاكمين –سبحانه–وتعالى.

إذا كان الناس في حياتهم الدنيا في حاجة إلى شهود إثبات حتى يمكنهم إثبات الجرم على من اقترفه، والحق –سبحانه– وتعالى لا تخفي عليه خافية في الأرض ولا السماء، وحال عباده لا يخفي عليه منه شيء ومع ذلك فلقد أحاط الحق –سبحانه– وتعالى عباده بشهود يحصون على العباد حركاتهم وسكناتهم، وأقوالهم وأفعالهم بل حتى خلجات قلوبهم، وذلك حتى لا تبقى لهم حجة عند ربهم –سبحانه– ويمكننا أن نبين أحوالهم فيما يأتي:

أولا: شهادة الحق سبحانه وتعالى:

يقول الحق سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧] ٠١١١

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَــهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[الأنعام: ١٩].

وكفي بالله شهيدا وكفي بالله عليما وكفي به حفيظاً وإنه لموقف مهول أن يقف العبد بين يدي ربه سبحانه وتعالى وينبئه ربه بكل صغيرة وكبيرة في حياته فالأمر كما قال الحق سبحانه: (أحصاه الله ونسوه).

ثانيا: شهادة الرسول ﷺ والمؤمنين معه:

يقول الحق سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَــؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى

وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾.(النحل:٨٩)

وفي موضع آخر يقول سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـؤُلاء شَهِيدًا. يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا﴾[النساء: ٤١-٤٢].

﴿وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج:٧٨].

وهذه من أصعب المواقف على العباد أن يأتي رسول الله ﷺ شاهدا على هذه الأمة في هذا اليوم وهو رسول الله ﷺ وأفضل الخلق عند الله سبحانه وتعالى.

ثالثاً: شهادة هذه الأمة على كل الأمم والجماعات قبل الإسلام:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وفي الحديث عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى هَلْ بَلَّغْتَ فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ فَيَقُولُ لأُمَّتِهِ هَلْ بَلَّغَكُمْ فَيَقُولُونَ لاَ مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ فَيَقُولُ لِنُوحٍ مَنْ يَشْهَدُ لَكَ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ وَالْوَسَطُ الْعَدْلُ*(١)

(١) البخاري. كتاب أحاديث الأنبياء. حديث رقم ٣٠٩١.

رابعاً: شهادة الكون بما فيه:

ومع ذلك فإن الشهادة لا تقتصر على ذلك، فإن الحق سبحانه قد جعل من العالم المحيط بالعباد جعل من الكون المحيط بعباده أجهزة تسجيل تسجل على العباد حركاتهم وسكناتهم،لتشهد بذلك أمام المولى سبحانه وتعالى حيث يقول المولى سبحانه: ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا. وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا. يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ [الزلزلة: ٢-٥].

خامساً: شهادة الملائكة الكرام البررة:

حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ. كِرَامًا كَاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[الإنفطار: ١٠-١٢].

هؤلاء جميعاً أقامهم الحق -سبحانه- حجة على عباده يأتون عليهم شهوداً يوم القيامة، ومع ذلك فإنك تجد العبد الكافر يجحد شهادتهم جميعاً، ويأبى الاعتراف بها أو الإقرار بما جاء فيها، ويرفض أن يشهدوا عليه في هذا اليوم، وأمره كما قال المولى سبحانه وتعالى عنه في محكم كتابه:﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ. ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ. انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾[الأنعام: ٢٢-٢٤].

فحينما يفعل العبد هذا ويجحد شهادة هؤلاء جميعاً بهذه الصورة الفجة التي يتجرأ فيها على الكذب على الله سبحانه ظلماً وزوراً حينئذ يأتي دور شهادة الجوارح والأعضاء وهو شاهد إثباته الذي يلزمه الحجة ويبهته فلا يستطيع جواباً أو رداً:

سادساً: شهادة الجوارح والحواس:

إن الحق سبحانه قد خلق الإنسان وأنعم عليه بنعم لا تحصى وخيرات لا تعد

حيث يقول سبحانه:﴿وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل: ٧٨].

وهذه الجوارح هي منة من عند الله ووديعته عند عباده، ويؤكد لهم المولى سبحانه بأنه سائلهم عن هذه الوديعة يوم القيامة، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[الإسراء: ٣٦].

ولقد كان لهذه الجوارح النصيب الأكبر في ارتكاب المرء للمعصية، والمشاركة في اقتراف الذنب، حيث يبين ذلك رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ. فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ. وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ. وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي. وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ) *[1]

فكما كان لهذه الجوارح حظها من الاستمتاع بالمعصية والتلذذ بها، فهي تأخذ نصيبها كذلك من الألم والعذاب، وأولى خطوات هذا العذاب أن تبدأ هي بالشهادة على صاحبها وإثبات الجرم عليه. يقول سبحانه:﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤]. ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[يس:٦٥].

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ. حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ.وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي

(١) البخاري. كتاب الاستئذان حديث رقم ٥٧٧٤.

ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ١٩-٢٣].

وما جاء مجملاً عن هذه الشهادة في كتاب الله تعالى جاء بيانها وتفصيل حالها في كثير من الأحاديث فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّه ﷺ فَضَحِكَ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟ قَالَ: قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.قَالَ: مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ. يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى. قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لاَ أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلاَّ شَاهِدًا مِنِّي. قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ. فَيُقَالُ لأَرْكَانِه: انْطِقِي. قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِه قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ. قَالَ: فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ * (١).

حقا إنه لموقف عصيب أن يكون شهود الإثبات على المرء أعضاؤه وجوارحه التي اقترفت الذنب وشاركت في الجرم.

لقد أقام الحق -سبحانه- الحجة على عباده في هذا اليوم فشهدت عليهم الأرض والملائكة الأبرار والمرسلون الأخيار، ومع ذلك ومع شهادة هؤلاء فإن العبد يكابر أمام ربه ويجحد شهادتهم جميعاً، وينكر ذنوبه، ولا يقر بخطاياه، حيث يقول سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ. ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ. انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٤].

فحينما يصل الأمر إلى ذلك تأتي شهادة الجوارح والأعضاء لتكون هي الحجة الدامغة التي لا يستطيع العبد بعدها رداً أو يجد جواباً، فحديث الجوارح وشهادة الأعضاء جزء من منظومة كبيرة تتابع فصولها يوم القيامة، ألا وهي منظومة

(١) مسلم. كتاب الزهد والرقائق. حديث رقم ٥٢٧١.

الحساب بين يدي الجبار سبحانه وتعالى يوم القيامة، ويتم الأمر على هذا النحو حيث تشهد عليه أعضاؤه، وتنطق بأعماله جوارحه، وذلك لكي لا يبقى لعبد فاجر حجة عند ربه، أو عذرا عند مولاه، فلقد ألزمه ربه الحجة من نفسه، ولكي يكون العباد في دنياهم على خوف دائم، ووجل مستمر من هول الموقف بين يديه – سبحانه– وتعالى.

٢- الصحائف والسجلات :

مع أن الحق – سبحانه – لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ومع أنه قد أحاط بكل شيء علما، مع ذلك فإن الحق سبحانه قد جعل من سنته في عباده أن يحصى عليهم أقوالهم وأفعالهم، وحركاتهم وسكناتهم، ووكل بهم ملائكة يسجلون على العباد كل ما بدر منهم وما قدمته أيديهم، حيث يقول سبحانه: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧-١٩]. وقال سبحانه: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ [النبأ: ٢٩].

هذا الكتاب قد دُون فيه كل شيء، وسجل فيه مثقال الذر والخردل وما ترك صغيرة ولا كبيرة في دنيا الناس إلا وسجلها،حيث يقول سبحانه: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

فإذا ما جاء يوم القيامة فإن هذه الصحف تتطاير حتى تلزم أعنق أصحابها في يوم القيامة، حيث يقول سبحانه: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤].

هذا ولقد بينت آيات القرآن بأن الناس عند تناولهم لصحائف أعمالهم مذاهب شتى فمنهم من يأخذ كتابه بيمينه، ومنهم من يأخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره، حيث يقول سبحانه: ﴿فأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ. إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيهْ. فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ. فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ. قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ. كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ. وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ. وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ. يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ. مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ. هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ. خُذُوهُ فَغُلُّوهُ. ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ. ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ.إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ. وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ. فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ. وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ. لاَ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِؤُونَ﴾ [الحاقة: ١٩-٣٧].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ. فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا. وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا. وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ. فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا. وَيَصْلَى سَعِيرًا. إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا. إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ. بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ [الإنشقاق: ٧-١٤].

﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَـئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً وَمَن كَانَ فِي هَـذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[الإسراء: ٧١-٧٢].

مشهد من مشاهد العرض والحساب

من رحمة الله بعباده أن الحق -سبحانه- قد كشف لهم في كتابه وعلى لسان نبيه الكثير من مشاهد يوم القيامة ومنها مواقف العرض والحساب كيف يكون حال المؤمن عند الحساب وبأي طريقة يحاسب الكافر والمنافق والفاسق، وسنذكر منها نماذج يتضح من خلالها حال الفريقين والأسلوب الذي يتم التعامل به مع كل منهما

عند العرض والحساب:

١- فرحة وسرور أوحسرة وندامة:

هذا هو حال الفريقين عندما تتطاير الصحف وتنشر دوواوين الأعمال وهذا ما يصوره لنا هذا المشهد في سورة الحاقة حيث يقول الحق -سبحانه-:﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ. إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيهْ. فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ. فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ. قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ. كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ. وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ. وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ. يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ. مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ. هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ. خُذُوهُ فَغُلُّوهُ. ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ. ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ.إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ. وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ. فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ. وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ. لاَ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِؤُونَ﴾ [الحاقة: ١٩-٣٧].

يقول صاحب الظلال:

وأخذ الكتاب باليمين وبالشمال ومن وراء الظهر قد يكون حقيقة مادية، وقد يكون تمثيلاً لغوياً جارياً على اصطلاحات اللغة العربية من تعبيرهم عن وجهة الخير باليمين ووجهة الشر بالشمال أو من وراء الظهر.. وسواء كان هذا أو ذاك فالمدلول واحد، وهو لا يستدعي جدلاً يضيع فيه جلال الموقف !

والمشهد المعروض هو مشهد الناجي في ذلك اليوم العصيب، وهو ينطلق في فرحة غامرة، بين الجموع الحاشدة، تملأ الفرحة جوانحه، وتغلبه على لسانه، فيهتف: هاؤم اقرؤوا كتابيه.. ثم يذكر في بهجة أنه لم يكن يصدق أنه ناج، بل كان يتوقع أن يناقش الحساب.. "

ثم يعلن على رؤوس الأشهاد ما أعد لهذا الناجي من النعيم، الذي تبدو فيه هنا

ألوان من النعيم الحسي، تناسب حال المخاطبين إذ ذاك، وهم حديثو عهد بجاهلية، ولم يسر من آمن منهم شوطاً طويلاً في الإيمان، ينطبع به حسه، ويعرف به من النعيم ما هو أرق وأعلى من كل متاع:

(فهو في عيشة راضية. في جنة عالية. قطوفها دانية. كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية)..

وهذا اللون من النعيم، مع هذا اللون من التكريم في الالتفات إلى أهله بالخطاب وقوله: (كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية).. فوق أنه اللون الذي تبلغ إليه مدارك المخاطبين بالقرآن في أول العهد بالصلة بالله، قبل أن تسمو المشاعر فترى في القرب من الله ما هو أعجب من كل متاع.. فوق هذا فإنه يلبي حاجات نفوس كثيرة على مدى الزمان.. والنعيم ألوان غير هذا وألوان..

وأما من أوتي كتابه بشماله _ وعرف أنه مؤاخذ بسيئاته، وأن إلى العذاب مصيره، فيقف في هذا المعرض الحافل الحاشد، وقفة المتحسر الكسير الكئيب ﴿فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه يا ليتها كانت القاضية ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانية﴾

وهي وقفة طويلة، وحسرة مديدة ونغمة يائسة، ولهجة بائسة. والسياق يطيل عرض هذه الوقفة حتى ليخيل إلى السامع أنها لا تنتهي إلى نهاية، وأن هذا التفجع والتحسر سيمضي بلا غاية ! وذلك من عجائب العرض في إطالة بعض المواقف، وتقصير بعضها،، وفق الإيحاء النفسي الذي يريد أن يتركه في النفوس. وهنا يراد طبع موقف الحسرة وإيحاء الفجيعة من وراء هذا المشهد الحسير. ومن ثم يطول ويطول، في تنغيم وتفصيل، ويتمنى ذلك البائس أنه لم يؤت كتابه، ولم يدر ما حسابه، كما يتمنى أن لو كانت هذه القارعة هي القاضية، التي تنهي وجوده أصلاً

فلا يعود بعدها شيئاً.. ثم يتحسر أن لا شيء نافعه مما كان يعتز به أو يجمعه ﴿ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه﴾.. فلا المال أغنى أو نفع. ولا السلطان بقي أو دفع.. والرنة الحزينة الحسيرة المديدة في طرف الفاصلة الساكنة وفي ياء العلة قبلها بعد المد بالألف، في تحزن وتحسر.. هي جزء من ظلال الموقف الموحية بالحسرة والأسى إيحاء بليغاً..

ولا يقطع هذه الرنة الحزينة المديدة إلا الأمر العلوي الجازم، بجلاله وهوله وروعته:

﴿خذوه. فغلوه. ثم الجحيم صلوه. ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾.. يا للهول الهائل ! ويا للرعب القاتل ! ويا للجلال الماثل !﴿خذوه﴾.

كلمة تصدر من العلي الأعلى. فيتحرك الوجود كله على هذا المسكين الصغير الهزيل. ويبتدره المكلفون بالأمر من كل جانب كما يقوا ابن أبي حاتم بإسناده عن المنهال بن عمرو: (إذا قال الله تعالى خذوه ابتدره سبعون ألف ملك. إن الملك منهم ليقول هكذا فيلقي سبعين ألفاً في النار).. كلهم يبتدر هذه الحشرة الصغيرة المكروبة المذهولة ! ﴿فغلوه﴾..فأي السبعين ألفاً بلغه جعل الغل في عنقه.. ! ﴿ثم الجحيم صلوه﴾.. ونكاد نسمع كيف تشويه النار وتصليه.. ﴿ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾..

وذراع واحدة من سلاسل النار تكفيه ولكن إيحاء التطويل والتهويل ينضح من وراء لفظ السبعين وصورتها. ولعل هذا الإيحاء هو المقصود !

فإذا انتهى الأمر، نشرت أسبابه على الحشود: ﴿إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين﴾..إنه قد خلا قلبه من الإيمان بالله، والرحمة بالعباد فلم يعد هذا القلب يصلح إلا لهذه النار وذلك العذاب.

خلا قلبه من الإيمان بالله فهو موات، وهو خرب، وهو بور،، وهو خلو من النور، وهو مسخ من الكائنات لا يساوي الحيوان بل لا يساوي الجماد، فكل شيء مؤمن، يسبح بحمد ربه، موصول بمصدر وجوده أما هو فمقطوع من الله مقطوع من الوجود المؤمن بالله.

وخلا قلبه من الرحمة بالعباد. والمسكين هو أحوج العباد إلى الرحمة ولكن هذا لم يستشعر قلبه ما يدعو إلى الاحتفال بأمر المسكين. ولم يحض على طعامه وهي خطوة وراء إطعامه. توحي بأن هناك واجباً اجتماعياً يتحاض عليه المؤمنون. وهو وثيق الصلة بالإيمان. يبينه في النص ويليه في الميزان.

﴿فليس له اليوم هاهنا حميم. ولا طعام إلا من غسلين لا يأكله إلا الخاطئون﴾.

وهي تكملة الإعلان العلوي عن مصير ذلك الشقي ﴿فليس له اليوم ها هنا حميم﴾ وهو ممنوع ﴿ولا طعام إلا من غسلين﴾.. والغسلين هو غسالة أهل النار من قيح وصديد ! وهذا يناسب قلبه النكد الخاوي من الرحمة بالعبيد ! طعام ﴿لا يأكله إلا الخاطئون﴾.. المذنبون المتصفون بالخطيئة.. وهو منهم في الصميم [1]..

٢-ستر ومغفرة أو فضيحة وتنكيل

إذا كان المشهد السابق قد صور لنا الحدث وكأنه ساحة من ساحات القضاء فيها، القاضي والمتهم وصحيفة الدعوى وعرض القضية والحكم الصادر بعد عرض القضية وتداولها، فتعالوا بنا لنرى مشهداً آخر يزيد الصورة وضوحاً، ويكشف لنا عن الكيفية التي يحاسب بها المؤمن بالله -سبحانه- وكيف يكون حال الكافر والفاجر عند الفصل والحساب. كشف لنا عنه رسول الله ﷺ حيث يقول: "إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ. فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتَعْرِفُ ذَنْبَ

(١) في ظلال القرآن. سيد قطب ٣٦٨٢/٦. ط. دار الشروق. بتصرف.

كَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الأَشْهَادُ: ﴿هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾*(١).

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنِّي لأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا. رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ. لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ. وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ. فَيُقَالُ لَهُ فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً فَيَقُولُ رَبِّ قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لاَ أَرَاهَا هَا هُنَا فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ* (٢).

من خلال هذه النصوص يتضح لنا ما يلي:

– مبلغ رحمة الله –سبحانه– بعباده المؤمنين فحسابهم سراً، ومراجعة أعمالهم بعيداً عن أهل الموقف جميعاً، فالحق –سبحانه– يضع عليهم كنفه ويسترهم عن أهل الموقف جميعاً، ويراجعهم لا في كل خطاياهم وذنوبهم، وإنما في بعض خطاياهم التي ارتكبوها، وصغار ذنوبهم التي اقترفوها، وهذا من فضل الله عليهم كذلك، أن يستر عليهم كبار ذنوبهم، حتى في العتاب فيما بينه وبينهم.

فضيحة وخزي وندامة

إذا كانت رحمة الله واسعة وسعت عباده المؤمنين في دنياهم وأخراهم، فستر عليهم في دنياهم ولم يفضحهم بما اقترفوا في أخراهم، كما رأينا في المشهد السابق،

(١) البخاري. كتاب المظالم والغصب. حديث رقم ٢٢٦١.

(٢) مسلم كتاب. الإيمان. حديث رقم ٢٧٧.

إذا كان هذا حال عباد الله المتقين، عند العرض والحساب، فإن للكافرين والفاجرين والفاسقين والمعربدين في الأرض أسلوباً آخر يتفق وما اقترفوا من ذنب أو ارتكبوا من إثم، ولننظر إليهم، في موقف العرض والحساب كما صورته لنا آيات القرآن:

لقد بينت الآيات بأنهم يأتون يحملون أثقالهم وأوزارهم وأثقال من كانوا سبباً في ضلالتهم{وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)}[العنكبوت]

وصحائف أعمالهم التي أخذوها ونظروا فيها وأيقنوا وتأكدوا بأنها قد أحصت عليهم كل شيء: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً}[الكهف:٤٩].

وفي ساحة العرض والحساب يؤتى بشهود الإثبات فيشيرون إليهم وهم يدلون بشهادتهم {... أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}[هود:١٨]

تُراهم مع ذلك كله هل يعترفون بجرائمهم أو يقرون بخطاياهم وآثامهم كلا!! إنهم في هذا الموقف ومع كل هذا ما تخلوا عن عنادهم وكبرهم، وسوء أخلاقهم، فهم يظنون بأنهم من الممكن أن ينجوا في هذا الموقف بمثل ما كانوا يصنعون في حياتهم الدنيا، يظنون بأن الأيمان الكاذبة منجية لهم من العذاب، كما كانت منجية لهم في الحياة الدنيا {يَوْمَ يَبْعَثُهُمْ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمْ الْكَاذِبُونَ}[المجادلة:١٨].

إنهم يلجئون إلى الأيمان المغلظة يقسمون بأغلظ الأيمان وآكدها بالله سبحانه وتعالى والله ربنا ما كنا مشركين، وهذا ماتكشفه لنا هذه الآيات:{وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ

جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)}[الأنعام]

ومع هذه الأيمان الكاذبة التي ما أغنت عنه شيئاً، فإن الأمر يبلغ الأمر ذروته حينما يجحد أحدهم شهادة الشهود ولا يقر بما سُجل عليه في صحائفه، ومن شدة عناده يرفض أي شهادة عليه إلا من نفسه ويظن بأنها المنجية له في هذا الموقف، ولكنه لا يدري بأنها المهلكة له حيث يفاجأ بشهادة لم يتوقعها، لقد شاءت إرادة الحق –سبحانه– أن يقيم الحجة على هؤلاء من أنفسهم، وهذا ما بينته لنا آيات القرآن حيث يقول الحق –سبحانه– ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[يس:٦٥].{وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠)}[فصلت].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَضَحِكَ فَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟ قَالَ: قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ. يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى. قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لاَ أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلاَّ شَاهِدًا مِنِّي،قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا. قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ انْطِقِي قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ قَالَ: فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ [1]*.

لقد كانت هذه الشهادة على أعداء الله هي القاصمة فهم ما توقعوا أن يحدث هذا أو يتم الأمر على هذا النحو فلقد ظنوا بأنهم من الممكن أن ينجوا بأيمان كاذبة

(١)مسلم. كتاب الزهد والرقائق. حديث رقم ٥٢٧١.

يلجئون إليها، أو بإنكار وجحود لشهادة الشهود ولكن لما جاءت الشهادة من جوراحهم وأعضاء جسدهم بُهتوا وسألوها مستنكرين {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١)}[فصلت] إنها قدرة الله -سبحانه- التي أنطقت كل شيء هي التي أقامت الحجة على أمثال هؤلاء، فكانت الشهادة عليهم من نفس الأعضاء التي فعلت الذنب، والجوارح التي اقترفت الإثم، فانقطعت بعد ذلك حجتهم، وكانت فضيحتهم على رؤوس الأشهاد يطلع أهل الموقف جميعاً من إنس وجن وملائكة على ما فعلوه من ذنب وما اقترفوه من وزر. فهل هناك خزي أكبر من هذا أو فضيحة تعادل مثل هذه الفضيحة.

فشتان ما بين حال هؤلاء في فضيحتهم وخزيهم والتنكيل بهم وبين حال المؤمنين في العفو عنهم وستر خطاياهم، ومحو ذنوبهم

- يتضح من خلال هذه النصوص كذلك شدة غضب الله ونقمته على الكافرين والفاجرين والفاسقين والمنافقين من الخلق، فإن فضيحتهم تكون على رؤوس الأشهاد، وذنوبهم وخطاياهم وآثامهم يعرفها القاصي والداني من أهل الموقف، بل زيادة في خزيهم والتنكيل والتشهير بهم، تكون فضيحتهم من خلال جوارحهم التي ارتكبت الذنب وأعضاء جسدهم التي اقترفت هذه المنكرات والآثام، من اليد والقدم والعين والأذن والفرج وسائر الأعضاء فهي التي تشهد وتثبت الجرم على صاحبها، فهل هناك خزي وفضيحة ومهانة أفظع من هذا.

- بالإضافة إلى ذلك تتفاوت أحوال العباد وطريقة حسابهم في هذا اليوم ففريق من العباد يكون حسابهم عسيرا وهؤلاء هم الكفرة المجرمون الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، وتمردوا على شرع الله وكذبوا الرسل.

وبعض عصاة الموحدين قد يطول حسابهم ويعسر بسبب كثرة الذنوب وعظمها وبعض العباد يدخلون الجنة بغير حساب وهم فئة قليلة لا يجاوزون السبعين ألفا، وهم الصفوة من هذه الأمة، والقمم الشامخة في الإيمان والتقى والصلاح والجهاد.

وبعض العباد يحاسبون حسابا يسيرا وهؤلاء لا يناقشون الحساب، أي لا يدقق ولا يحقق معهم، وإنما تعرض عليهم ذنوبهم ثم يتجاوز لهم عنها، وهذا معنى قوله تعالى ﴿وأما من أوتي كتابه بيمينه، فسوف يحاسب حسابا يسيرا﴾، وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك، فقلت: يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالى ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه، فسوف يحاسب حسابا يسيرا﴾ فقال رسول الله ﷺ: إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا هلك)[1].

قال النووي في شرحه للحديث: معنى نوقش الحساب: استقصى عليه.

قال القاضي: وقوله " عذب " له معنيان: أحدهما: أن نفس المناقشة وعرض الذنوب والتوقيف عليها هو التعذيب لما فيه من التوبيخ.

والثاني: أنه مفض إلى العذاب بالنار ويؤيده قوله في الرواية الأخرى: "هلك " مكان عذب هذا كلام القاضي. قال النووي: وهذا الثاني هو الصحيح، ومعناه التقصير غالب في العباد فمن استقصى عليه، ولم يسامح هلك، ودخل النار، ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء. ونقل ابن حجر عن القرطبي في معنى قوله (إنما ذلك العرض). قال: إنه الحساب المذكور في الآية إنما هو أن تعرض أعمال المؤمن عليه حتى يعرف منّة الله عليه في سترها في الدنيا، وفي

(١) البخاري. كتاب تفسير القرآن. حديث رقم ٤٥٥٨.

عفوه عنها في الآخرة[1].

هذا عن موقف أخذ الكتاب وتناول الصحف وليت الأمر يقف عند هذا الحد، وإنما ما زال في يوم القيامة الكثير من المواقف التي تشيب من أجلها رؤوس الولدان منها:

القصاص بين العباد

إن يوم القيامة يوم الفصل والقضاء والحساب والجزاء، ويوم للقصاص بين العباد فإن الخلق يحشرون ويجمعون في هذا اليوم، ومن تمام العدل أن ترد الحقوق إلى أصحابها، وأن تعود المظالم إلى أهلها، وأن يأخذ كل ذي حق حقه، {وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفي بنا حاسبين}[الأنبياء:٤٧]. فأصحاب المظالم يطالبون بمظالمهم والقتلة والمجرمون وسفاكوا الدماء يحشرون للقصاص منهم، بل إن البهائم العجماء لتحشر كذلك ليقيم الحق –سبحانه– ميزان العدل والقصاص فيما بينها. ونصوص الأحاديث تثبت هذا فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء) رواه مسلم[2].

والذي يقذف مملوكه بالزنا يقام عليه الحد في يوم القيامة إن كان كاذبا فيما رماه به، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو القاسم ﷺ:(من قذف مملوكه بالزنا يقام عليه الحد يوم القيامة، إلا أن يكون كما قال) رواه مسلم[3].

وثروة الإنسان في يوم القيامة ورأس ماله هي الحسنات، فإذا كانت عليه مظالم

(١) موقع المأوى على شبكة المعلومات الدولية www.almawa.net.

(٢) مسلم. كتاب البر والصلة الآداب. حديث رقم ٤٦٧٩.

(٣) مسلم كتاب الأيمان. حديث رقم ٣١٣٨.

للعباد فإنهم يأخذون من حسناته بقدر ما ظلمهم، فإن لم يكن له حسنات أو فنيت حسناته، فإنه يؤخذ من سيئاتهم فيطرح فوق ظهره. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء، فليتحلل منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه)رواه البخاري[1].

والمفلس هو من يأخذ الناس حسناته، ثم يقذفون بسيئاتهم فوق ظهره، كما جاء في الحديث الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: إن المفلس من أمتي، من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذت من خطاياهم، فطرحت عليه، ثم طرح في النار)رواه مسلم[2].

والمدين الذي مات وللناس في ذمته أموال يأخذ أصحاب الأموال من حسناته بمقدار ما لهم عنده، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (من مات وعليه دينار أو درهم، قضى من حسناته، ليس ثم دينار ولا درهم) رواه ابن ماجه[3].

وإن كان بين العباد مظالم متبادلة اقتص لبعضهم من بعض، فإن تساوى ظلم كل واحد للآخر كان كفافا لا له ولا عليه، وإن بقي لبعضهم حقوق عند الآخرين

(١) البخاري. كتاب والمظالم والغصب. حديث رقم ٢٢٦٩.
(٢) مسلم. كتاب البر والصلة والآداب. حديث رقم ٤٦٧٨.
(٣) سنن ابن ماجة. كتاب الأحكام ٢٤٠٥.

أخذها، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء رجل فقعد بين يدي الرسولﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي مملوكين يكذبونني، ويخونني، ويعصونني، واشتمهم وأضربهم، فكيف أنا منهم؟ فقال رسول الله ﷺ: (إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك، وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافا لا لك ولا عليك. وإن كان عقابك إياهم دون ذنبهم كان فضلا لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم، اقتص لهم منك الفضل). فتنحى الرجل وجعل يهتف ويبكي. فقال الرسول ﷺ أما تقرأ قوله تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾[1].

نخلص من خلال هذه النصوص لما يلي:

-أن القصاص أمر لا بد منه لرد المظالم إلى أصحابها. ولتعود الحقوق إلى أهلها

-صدق الحق -سبحانه- {يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ - إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء:٨٨-٨٩] المال والبنون لا قيمة لها في هذا اليوم، وإنما يُقوَّم كل شيء بالحسنات والسيئات فهي بمثابة العملة الوحيدة المعترف بها والصالحة للتداول في هذا اليوم، وقيمة المرء في سوق القيامة على قدر ما يملكه من الحسنات، وما وقى منه نفسه من السيئات، ولذلك فإن من مؤشرات الإفلاس في هذا اليوم تآكل الحسنات وتراكم الذنوب والسيئات. وهو المفلس الذي صوره لنا رسول الله ﷺ الذي دخل الموقف بحسنات كالجبال ولكنه خرج من ذلك كله صفر اليدين، بل محملاً بذنوب العباد وآثامهم.

(١) سنن الترمذي. كتاب تفسير القرآن. حديث رقم ٣٠٨٩.

وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا:

لكي لا تبقى لأحد حجة، ولتنقطع أعذار أصحاب الأعذار، وليتحقق العدل الإلهي في أتم صوره توضع الموازين في يوم القيامة يوزن فيها مثقال الذرة والحبة من الخردل وهذا ما كشفت عنه آيات القرآن حيث يقول الحق سبحانه: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ لْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾[الأنبياء: ٤٧].

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨-٩].

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣].

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ. فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ. وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ. فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ. نَارٌ حَامِيَةٌ﴾[القارعة: ٦-١١].

إن هذا الميزان ينصب في ختام ذلك اليوم لوزن أعمال العباد وإقامة الحجة عليهم أمام الله سبحانه وتعالى. يقول القرطبي:وإذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال، لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقدير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها [١].

وقد دلت النصوص على أن الميزان ميزان حقيقي، لا يقدر قدره إلا الله، فقد روى الحاكم عن سلمان عن النبي ﷺ قال:(يوضع الميزان يوم القيامة، فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت. فتقول الملائكة: يا رب لمن يزن هذا؟ فيقول الله

(١) تذكرة القرطبي: ٣٠٩.

تعالى: لمن شئت من خلقي. فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك).[1]

وهو ميزان دقيق لا يزيد ولا ينقص يوزن فيه مثقال الحبة والخردل، وما هو أعظم من ذلك أو أقل من هذا حيث يقول سبحانه: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾.

اختلاف العلماء في الميزان

وقد اختلف أهل العلم في وحدة الميزان وتعدده، فذهب بعضهم إلى أن لكل شخص ميزانا خاصا، أو لكل عمل ميزانا لقوله تعالى ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾.

وذهب آخرون إلى أن الميزان واحد وأن الجمع في الآية إنما هو باعتبار تعدد الأعمال أو الأشخاص. وقد رجح ابن حجر بعد حكايته للخلاف أن الميزان واحد، قال: ولا يشكل بكثرة من يوزن عمله، لأن أحوال القيامة لا تكيف بأحوال الدنيا.[2]

وقال السفاريني: قال الحسن البصري: لكل واحد من المكلفين ميزان.

قال بعضهم: الأظهر إثبات موازين القيامة لا ميزان واحد، لقوله تعالى: ﴿ونضع الموازين﴾، وقوله ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ قال: وعلى هذا فلا يبعد أن يكون لأفعال القلوب ميزان، ولأفعال الجوارح ميزان، ولما يتعلق بالقول ميزان. أورد هذا ابن عطية وقال: الناس على خلافه، وإنما لكل واحد وزن مختص به، والميزان واحد، وقال بعضهم إنما جمع الموازين في الآية الكريمة لكثرة من توزن أعمالهم.

---

(١)سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٦٥٦/٢). ورقم الحديث: ٩٤١.

(٢)فتح الباري: (٥٣٧/٣).

وهو حسن.[1]

والميزان عند أهل السنة ميزان حقيقي توزن به أعمال العباد وخالف في هذا المعتزلة، وقلة قليلة من أهل السنة. قال ابن حجر: قال أبو اسحاق الزجاج: أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد توزن به يوم القيامة، وأن الميزان له لسان وكفتان ويميل بالأعمال. وأنكرت المعتزلة الميزان، وقالوا: هو عبارة عن العدل، فخالفوا الكتاب والسنة، لأن الله أخبر أنه يضع الموازين لوزن الأعمال، ليرى العباد أعمالهم ممثلة ليكونوا على أنفسهم شاهدين .وقال ابن فورك: أنكرت المعتزلة الميزان، بناء منهم أن الأعراض يستحيل وزنها إذ لا تقوم بأنفسها. قال: وقد روى بعض المتكلمين عن ابن عباس أن الله تعالى يقلب الأعراض أجساما فيزنها. انتهى.

وقد ذهب بعض السلف إلى أن الميزان بمعنى العدل والقضاء، وعزا الطبري القول بذلك إلى مجاهد. والراجح ما ذهب إليه الجمهور. وذكر الميزان عند الحسن فقال: له لسان وكفتان.[2]

وعزا القرطبي تفسير الميزان بالعدل إلى مجاهد والضحاك والأعمش[3]. ولعل هؤلاء العلماء فسروا الميزان بالعدل في مثل قوله تعالى: (وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ - أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ - وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ) [الرحمن: ٧-٩]، فالميزان في هذه الآية العدل، أمر الله عباده أن يتعاملوا به فيما بينهم، أما الميزان الذي ينصب في يوم القيامة فقد تواترت بذكره الأحاديث، وأنه

(١)لوامع الأنوار البهية: (١٨٦/٢).
(٢)فتح الباري: (٥٣٨/١٣) بتصرف يسير.
(٣)تذكرة القرطبي: ٣١٣.

ميزان حقيقي، وهو ظاهر القرآن[١].

وقد رد الإمام أحمد على من أنكر الميزان بأن الله تعالى ذكر الميزان في قوله: (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) [الأنبياء: ٤٧]. والنبي ﷺ ذكر الميزان يوم القيامة، فمن رد على النبي ﷺ فقد رد على الله عز وجل[٢].

وقد استدل شيخ الاسلام بن تيمية على أن الميزان غير العدل، وأنه ميزان حقيقي توزن به الأعمال بالكتاب والسنة فقال: والميزان هو ما يوزن به الأعمال، وهو غير العدل كما دل على ذلك الكتاب والسنة مثل قوله تعالى ﴿فمن ثقلت موازينه﴾، ﴿ومن خفت موازينه﴾ وقوله ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾،

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال ﴿كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم﴾[٣]. وقال عن ساقي عبد الله بن مسعود: (لهما في الميزان أثقل من أحد)[٤].

وفي الترمذي وغيره حديث البطاقة، وصححه الترمذي والحاكم وغيرهما عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا،كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ،ثُمَّ يَقُولُ أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟

أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: بَلَى. إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً فَإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ. فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ،

(١)النهاية لابن كثير: (٢/٣٤).

(٢)فتح الباري: (١٣/٥٣٨).

(٣) البخاري. كتاب الدعوات. حديث رقم ٥٩٢٧.

(٤) المسند للإمام أحمد بن حنبل مسند العشرة المبشرين بالجنة. حديث رقم ٨٧٦.

فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاَّتِ؟ فَقَالَ: إِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ. قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كَفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، فَلاَ يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ*[1] وهذا وأمثاله مما يبين أن الأعمال توزن بموازين تبين بها رجحان الحسنات على السيئات وبالعكس، فهو ما به تبين العدل والمقصود بالوزن العدل، كموازين الدنيا.[2]

هذا وقد اختلف آراء أهل العلم في الموزون ذلك اليوم على أقوال:

الأول: أن الذي يوزن في ذلك اليوم الأعمال نفسها وأنها تجسم فتوضع، ويدل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ((كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)) رواه البخاري[3].

وقد دلت نصوص كثيرة على أن الأعمال تأتي في يوم القيامة في صورة الله سبحانه أعلم بها، فمن ذلك مجيء القرآن شافعا لأصحابه، وأن سورة البقرة وآل عمران تأتيان كأنهما غمامتان أو غيابتان، أو فرقا من طير صواف تحاجان عن أصحابهما.

وروى أبو أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (اقرأوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه. اقرأوا الزهراوين: البقرة وآل عمران، فإنهما تأتيان كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما) رواه مسلم[4].

---

(١) سنن الترمذي. كتاب الإيمان. حديث رقم ٢٥٦٣.

(٢)مجموع فتاوي شيخ الإسلام: (٣٠٢/٤).وموقع المأوى على شبكة المعلومات الدولية www.almawa.net.

(٣) البخاري. كتاب الدعوات. حديث رقم ٥٩٢٧.

(٤) مسلم. كتاب صلاة المسافرين. حديث رقم ١٣٣٧.

وهذا القول رجحه ابن حجر العسقلاني ونصره، فقال: والصحيح أن الأعمال هي التي توزن، وقد أخرج أبو داود والترمذي،وصححه ابن حبان عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ: (يَقُولُ:مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلاَةِ)[1]

الثاني: أن الذي يوزن هو العامل نفسه، فقد دلت النصوص على أن العباد يوزنون في يوم القيامة، فيثقلون في الميزان أو يخفون بمقدار إيمانهم، لا بضخامة أجسامهم، وكثرة ما عليهم من لحم ودهن، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول اللهﷺ قال (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة) وقال: اقرأوا ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا﴾[2]

وعن ابن مسعود أنه كان رقيق الساقين فجعلت الريح تلقيه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ(مم تضحكون؟) قالوا: يا نبي الله من رقة ساقيه قال: والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد[3].

الثالث : أن الذي يوزن إنما هو صحائف الأعمال، فقد روى الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يُصَاحُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلاَئِقِ،فَيُنْشَرُ لَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلاًّ،كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ.ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:هَلْ تُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ فَيَقُولُ:لاَ يَا رَبِّ. فَيَقُولُ:أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ ثُمَّ يَقُولُ: أَلَكَ عَنْ ذَلِكَ حَسَنَةٌ فَيُهَابُ الرَّجُلُ. فَيَقُولُ: لاَ. فَيَقُولُ: بَلَى. إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَات. وَإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ. فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ. وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. قَالَ:

(١) سنن الترمذي. كتاب البر والصلة. حديث رقم ١٩٢٦.

(٢) البخاري. كتاب تفسير القرآن. حديث رقم ٤٣٦٠.

(٣) المسند للإمام أحمد بن حنبل مسند العشرة المبشرين بالجنة. حديث رقم ٦٧٨.

فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاَّتِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ. فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى الْبِطَاقَةُ الرُّقْعَةُ وَأَهْلُ مِصْرَ يَقُولُونَ لِلرُّقْعَةِ بِطَاقَةً[1]*.

وقد مال القرطبي والسفاريني إلى هذا القول. ولعل الحق أن الذي يوزن هو العامل وعمله وصحف أعماله، فقد دلت النصوص التي سقناها على أن كل واحد من هذه الثلاثة يوزن، ولم تنف النصوص المثبتة لوزن الواحد منها أن غيره لا يوزن، فيكون مقتضى الجمع بين النصوص إثبات الوزن للثلاثة المذكورة جميعها[2].

الأعمال التي تثقل الميزان

أثقل ما يوضع في ميزان العبد حسن الخلق، فعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: (إن أثقل شيء يوضع في ميزان العبد يوم القيامة خلق حسن، وإن الله يبغض الفاحش البذيء) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم) رواه البخاري ومسلم [4].

وعن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ (الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن (أو تملأ) ما بين السماء

(١) سنن ابن ماجه. كتاب الزهد. حديث رقم ٤٢٩٠.

(٢)فتح الباري: (٤٠٢/١١).وموقع المأوى على شبكة المعلومات الدولية. www.almawa.net .

(٣) سنن الترمذي. حديث رقم ١٩٢٥.

(٤) البخاري. كتاب الدعوات. حديث رقم ٥٩٢٧. ومسلم. كتاب الذكر والدعاء. حديث رقم ٤٨٦٠.

والأرض) رواه مسلم [1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (من احتبس فرسا في سبيل الله إيمانا واحتسابا وتصديقا بوعده، كان شبعه وريه وروثه في ميزانه يوم القيامة) رواه البخاري والنسائي وأحمد[2].

حساب الكفار في يوم القيامة:

هل يسأل الكفار؟ولماذا يسألون؟

ترى هل يُسأل الكفار في يوم القيامة ويُحاسبون على ما قدموه من أعمال؟ خاصة وأن سؤالهم هذا لا يترتب عليه كبير فائدة، فهم حطب النار ووقودها، سُئلوا أم لم يُسألوا ! وذلك لكفرهم بالله سبحانه، وتكذيبهم برسله وأنبيائه.

اختلف العلماء في ذلك: هل يحاسبون ويسألون؟ أم يُؤمر بهم إلى النار من غير سؤال ولا حساب؟ لأن أعمالهم باطلة حابطة فلا فائدة من السؤال والحساب؟ وإذا كانوا يحاسبون فما فائدة حسابهم وسؤالهم؟ الصحيح: أن الكفار محاسبون مسؤولون، كما أن أعمالهم توزن عليهم، وقد دلت على ذلك نصوص كثيرة كقوله تعالى: ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾[القصص:٦٢]. وقوله ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾[القصص: ٦٥].

وقوله ﴿فأما من ثقلت موازينه، فهو في عيشة راضية، وأما من خفت موازينه فأمه هاويه، وما أدراك ما هيه، نار حاميه﴾[القارعة: ٦-١١].

وقوله تعالى ﴿ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون، تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون،ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها

(١) مسلم. كتاب الطهارة. حديث رقم ٣٢٨.

(٢)كتاب الجهاد والسير. حديث رقم ٢٦٤١.

تكذبون﴾ [المؤمنون: ١٠٣ – ١٠٤].

أما لماذا يحاسبون وتوزن أعمالهم مع أن أعمالهم حابطة مردودة، فلأمور منها:

الأول: إقامة الحجة عليهم، وإظهار عدل الله فيهم، ولا أحد أحب إليه العذر من الله وهو صاحب العدل المطلق، قال تعالى:﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا﴾ [الكهف: ٤٩].

الثاني: أن الله يحاسبهم لتوبيخهم وتقريعهم، قال تعالى: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ [الأنعام: ٣١].

الثالث: أن الكفار مكلفون ا الشريعة كما هم مكلفون بفروعها – على الراجح عند بعض العلماء –فيسألون عما قصروا فيه وخالفوا فيه الحق. واستشهد القرطبي على أنهم مخاطبون بفروع الشريعة ومسئولون عنها بقوله تعالى: ﴿وويل للمشركين. الذين لا يؤتون الزكاة﴾ [فصلت:٦-٧] فتوعدهم على منعهم الزكاة، وأخبر عن المجرمين أنهم يقال لهم: ﴿ما سلكم في سقر. قالوا لم نك من المصلين، ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين، وكنا نكذب بيوم الدين﴾ [المدثر: ٤٢-٤٦].

الرابع: أن الكفار يتفاوتون في كفرهم وذنوبهم ومعاصيهم، ويحلون في النار بمقدار هذه الذنوب، فالنار دركات بعضها تحت بعض، وكلما كان المرء أشد كفراً كلما كان أشد عذاباً.

وذكر ابن تيمية أن الحساب لبيان مراتب العذاب لا لأجل دخول الجنة كما أن

أبا طالب أخف عذابا من أبي لهب. ويذكر القرطبي وجهين لوزن الأعمال الأول: أنه يوضع في إحدى الكفتين كفره وسيئاته، ولا يجد الكفار حسنة توضع في الكفة الأخرى، فترجح كفة السيئات.

والثاني: أن حسنات الكفار من صلة رحم وصدقة ومواساة الناس توضع في كفة الحسنات، ولكن كفة السيئات ترجح بسبب كفره وشركه. والوجه الأول هو الصحيح لأن الشرك يحبط الأعمال كما قال تعالى ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ [الزمر:٦٥].

فلقد روي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ حَدَّثَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ اللَّهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ*[1].

وبعد تقرير سؤال الكفار فيما سبق، فكيف توجه النصوص الدالة على خلاف ذلك كقوله تعالى: ﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ [القصص: ٧٨]. وقوله:﴿هذا يوم لا ينطقون، ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦].

والجواب على ذلك أنه ليس بين هذه النصوص إن شاء الله تعالى تعارض وقد وفق أهل العلم بينها بوجوه عدة:

الأول: أن الكفار لا يسألون سؤال شفاء وراحة، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ.

الثاني: أنهم لا يسألون سؤال استفهام، لأنه تعالى عالم بكل أعمالهم، وإنما يسألهم سؤال تقرير.

الثالث: أنهم يسألون في يوم القيامة في موطن دون موطن، قال القرطبي:

(١) مسلم. كتاب صفة القيامة والجنة والنار. حديث رقم ٥٠٢٣.

"القيامة مواطن، فموطن يكون فيه سؤال وكلام، وموطن لا يكون ذلك ".[1]

الرابع: قال القرطبي: إن معنى قوله تعالى: ﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾، سؤال التعرف لتمييز المؤمنين من الكافرين، أي إن الملائكة لا تحتاج أن تسأل أحدا يوم القيامة أن يقال: ما دينك؟ وما كنت تصنع في الدنيا؟ حتى يتبين لهم بإخباره عن نفسه أنه كان مؤمنا، أو كان كافرا وما كنت تصنع في الدنيا؟ حتى يتبين لهم بإخباره عن نفسه أنه كان مؤمناً أو كان كافراً، لكن المؤمنين يكونون ناضري الوجوه منشرحي الصدور، ويكون المشركون سود الوجوه زرقاً مكروبين، فهم إذا كلفوا سوق المجرمين إلى النار، وتميزهم في الموقف كفتهم مناظرهم عن تعرف أديانهم.. [2]".

تصوير المحاسبي لأحداث يوم القيامة:

لقد صور المحاسبي هول الوقف تصويراً رائعاً وتخيل فيه العبد وهو يمر بأحداث يوم القيامة وتوهم ما يحدث له في هذا اليوم وكأن القيامة قد قامت والناس قد حشروا وتوهم العبد ما يجري له في هذا الموقف نذكره في هذا المبحث فهو يعتبر تصويراً بليغاً للأحداث، وبياناً وافياً لها وموجز في نفس الوقت، فيقول رحمه الله تعالى:

حتى إذا تكاملت عدة الموتى، وخلت من سكانها الأرض والسماء فصاروا خامدين بعد حركاتهم، فلا حس يسمع، ولا شخص يرى، وقد بقي الجبار الأعلى كما لم يزل أزليا واحدا منفردا بعظمته وجلاله، ثم لم يفجأ روحك إلا بنداء المنادي لكل الخلائق معك للعرض على الله عز وجل بالذل والصغار منك ومنهم. فتوهم

(١)تذكرة القرطبي: ٢٨٦.

(٢)انظر القيامة الكبرى د.عمر سليمان الأشقر١/١٥٥وتذكرة القرطبي : ٢٨٧ وموقع المأوى على شبكة المعلومات الدولية. www.almawa.net.

كيف وقوع الصوت في مسامعك وعقلك، وتفهم بعقلك كأنك تدعى إلى العرض إلى الملك الأعلى، فطار فؤادك، وشاب رأسك للنداء، لأنها صيحة واحدة بالعرض على ذي الجلال والإكرام والعظمة والكبرياء، فبينما أنت فزع للصوت إذ سمعت بانفراج الأرض على رأسك، فوثبت مغبرا من قرنك إلى قدمك بغبار قبرك، قائم على قدميك، شاخص بصرك نحو النداء، قد ثار الخلائق كلهم معك ثورة واحدة، مغبرون من غبار الأرض التي طال فيها بلاؤهم.

فتوهم ثورتهم بأجمعهم بالرعب والفزع منك ومنهم، فتوهم نفسك بعريك ومذلتك وانفرادك بخوفك وأحزانك وغمومك وهمومك في زحمة الخلائق عراة حفاة صامتون أجمعون بالذلة والمسكنة والمخافة والرهبة، فلا تسمع إلا همس أقدامهم والصوت لمدة المنادي، والخلائق مقبلون نحوه، وأنت فيهم مقبل نحو الصوت، ساع بالخشوع والذلة، حتى إذا وافيت الموقف ازدحمت الأمم كلها من الجن والإنس عراة حفاة، قد نزع الملك من ملوك الأرض ولزمتهم الذلة والصغار، فهم أذل أهل الجمع وأصغرهم خلقة وقدرا بعد عتوهم وتجبرهم على عباد الله عز وجل في أرضه.

ثم أقبلت الوحوش من البراري وذرى الجبال منكسة رؤوسها، ذليلة ليوم القيامة، حتى وقفت من وراء الخلائق بالذل والمسكنة، والانكسار للملك الجبار، وأقبلت الشياطين بعد عتوها وتمردها، خاشعة لذل العرض على الله سبحانه، فسبحان الذي جمعهم بعد طول البلاء واختلاف خلقهم وطبعائهم وتوحش بعضهم من بعض، قد أذلهم البعث، وجمع بينهم النشور.

حتى إذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامها، واستووا جميعا في موقف العرض والحساب، تناثرت

نجوم السماء من فوقهم، وطمست الشمس والقمر، وأظلمت الأرض بخمود سراجها، وإطفاء نورها. فبينما أنت والخلائق على ذلك إذ صارت السماء الدنيا من فوقهم، فدارت بعظمها من فوق رؤوسهم، وذلك بعينك تنظر إلى هول ذلك، ثم انشقت بغلظها خمسمائة عام، فيا هول صوت انشقاقها في سمعك، ثم تمزقت وانفطرت بعظيم هول يوم القيامة، والملائكة قيام على أرجائها وهي حافات ما يتشقق ويتفطر، فما ظنك بهول تنشق فيه السماء بعظمها، فأذابها ربها حتى صارت كالفضة المذابة تخالطها صفرة لفزع يوم القيامة، كما قال الجليل الكبير﴿فكانت وردة كالدهان﴾[الرحمن: ٣٧] ﴿يوم تكون السماء كالمهل، وتكون الجبال كالعهن﴾ [المعارج: ٨-٩].

فبينما ملائكة السماء الدنيا على حافتها، إذا انحدروا محشورين إلى الأرض للعرض والحساب، وانحدروا من حافتيها بعظم أجسامهم وأخطارهم وعلو أصواتهم بتقديس الملك الأعلى الذي أنزلهم محشورين إلى الأرض بالذلة والمسكنة للعرض عليه والسؤال بين يديه.

فتوهم تحدرهم من السحاب، بعظيم أخطارهم، وكبير أجسامهم، وهول أصواتهم، وشدة فرقهم، منكسين لذل العرض على الله عز وجل.

فيا فزعك، وقد فزع الخلائق مخافة أن يكونوا أمروا بهم، مسألتهم إياهم: أفيكم ربنا؟ ففزع الملائكة من سؤالهم إجلالا لمليكهم أن يكون فيهم، فنادوا بأصواتهم تنزيلا لما توهمه أهل الأرض :سبحان ربنا ليس هو بيننا فهو آت، حتى أخذوا مصافهم، محدقين بالخلائق، منكسين رؤوسهم في عظم خلقهم بالذل والمسكنة والخشوع لربهم، ثم كل شيء على ذلك، وكذلك إلى السماء السابعة، كل أهل سماء مضعفين بالعدد وعظم الأجساد، وكل أهل سماء محدقين بالخلائق صفا.

حتى إذا وافى الموقف أهل السماوات السبع، والأرضين السبع، كسيت الشمس حر عشر سنين، وأدنيت رؤوس الخلائق قاب قوس أو قوسين، ولا ظل لأحد إلا ظل رب العالمين، فمن بين مستظل بظل العرش، وبين مضحو بحر الشمس، قد صهرته بحرها، واشتد كربه وقلقه من وهجها، ثم ازدحمت الأمم وتدافعت، فدفع بعضهم بعضا، وتضايقت فاختلفت الأقدام، وانقطعت الأعناق من العطش، واجتمع حر الشمس، ووهج أنفاس الخلائق، وتزاحم أجسامهم، ففاض العرق سائلا حتى استنقع على وجه الأرض، ثم على الأبدان، على قدر مراتبهم ومنازلهم عند الله عز وجل بالسعادة والشقاء، حتى إذا بلغ من بعضهم العرق كعبيه، وبعضهم حقويه، وبعضهم إلى شحمة أذنه، ومنهم من كاد أن يغيب في عرقه، ومن قد توسط العرق من دون ذلك منه.

وفي الحديث عن الْمِقْدَاد بْن الأَسْوَدِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: (تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ. قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ: فَوَاللَّه مَا أَدْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ؟ أَمَسَافَةَ الأَرْضِ؟ أَمِ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ؟ قَالَ: فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ. فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا، قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللَّه ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ)[1]*.

عن ابن عمر –رضي الله عنهما– قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الرجل، وقال مرة: إن الكافر ليقوم يوم القيامة في بحر رشحه إلى أنصاف أذنيه من طول القيام)[2].

(١)مسلم. كتاب الجنة ووصف نعيمها وأهلها. حديث رقم ٥١٠٨.

(٢)البخاري. كتاب تفسير القرآن. حديث رقم ٤٥٥.

وعن عبد الله رفعه إلى النبي ﷺ: (إن الكافر يلجم بعرقه يوم القيامة من طول ذلك اليوم، وقال علي: من طول القيام. قالا جميعا، حتى يقول: رب أرحني ولو إلى النار. وأنت لا محالة أحدهم، فتوهم نفسك راجعة لكربك وقد علاك العرق، وأطبق عليك الغم، وضاقت نفسك في صدرك من شدة العرق والفزع والرعب، الناس معك منتظرون لفصل القضاء إلى دار السعادة، أو إلى دار الشقاء، حتى إذا بلغ المجهود منك ومن الخلائق منتهاه، وطال وقوفهم لا يكلمون ولا ينظرون في أمورهم.

عن قتادة أو كعب قال: يوم يقوم الناس لرب العالمين قال: يقومون مقدار ثلاثمائة عام، قال سمعت الحسن يقول: ما ظنك بأقوام ما قاموا لله عز وجل على أقدامهم مقدار خمسين ألف لم يأكلوا فيها أكلة ولم يشربوا فيها شربة، حتى إذا انقطعت أعناقهم من العطش، واحترقت أجوافهم من الجوع انصرف بهم إلى النار، فسقوا من عين آنية قد آن حرها، واشتد نفحها، فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضا في طلب من يكرم على مولاه أن يشفع لهم في الراحة من مقامهم وموقفهم لينصرفوا إلى الجنة أو إلى النار من وقوفهم ففزعوا إلى آدم ونوح ومن بعده إبراهيم، وموسى وعيسى من بعد إبراهيم، كلهم يقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضبه قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، فكلهم يذكر شدة غضب ربه عز وجل وينادي بالشغل بنفسه فيقول: نفسي نفسي، فيشتغل بنفسه عن الشفاعة لهم إلى ربهم لاهتمامه بنفسه وخلاصها وكذلك يقول الله عز وجل ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾[النحل: ١١١].

فتوهم أصوات الخلائق وهم ينادون بأجمعهم / منفرد كل واحد منهم بنفسه، ينادي نفسي نفسي، فلا تسمع إلا قول نفسي نفسي. فيا هول ذلك وأنت تنادي معه بالشغل بنفسك والاهتمام بخلاصها من عذاب ربك وعقابه، فما ظنك بيوم ينادي فيه المصطفى آدم والخليل إبراهيم، والكليم موسى، والروح والكلمة عيسى مع كرامتهم

على الله عز وجل وعظم قدر منازلهم عند الله عز وجل كل ينادي: نفسي نفسي، شفقا من شدة غضب ربه، فأين أنت منهم في إشفاقك في ذلك اليوم، واشتغالك بذلك اليوم، وبحزنك وبخوفك؟ حتى إذا أيس الخلائق من شفاعتهم أتوا النبي محمد ﷺ فسألوه الشفاعة إلى ربهم، فأجابهم إليها، ثم قام إلى ربه عز وجل واستأذن عليه فأذن له، ثم خر لربه ساجدا، ثم فتح عليه من محامده والثناء عليه لما هو أهله، وذلك كله بسمعك وإسماع الخلائق، حتى أجابه ربه عز وجل إلى تعجيل عرضهم والنظر في أمورهم(١).

نهاية المطاف:

يعالج هذا المبحث نقاط عدة

-حشر الكافرين إلى جهنم

-الصراط وأحوال العباد عند المرور عليه

مدخل: يقول الحق -سبحانه-: {وَأَشْرَقَتْ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ* وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ* وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ* قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ* وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ}[الزمر:٦٩-٧٣].

لقد صورت هذه الآيات بعبارة موجزة الكثير من مشاهد هذا اليوم وضع

(١) موقع المأوى على شبكة المعلومات الدولية www.almawa.net.

الكتاب وشهادة الشهود والفصل والقضاء وحشر الكافرين إلى جهنم زمراً والمتقين إلى الجنات زمراً وهو بمثابة الفصل الختامي ونهاية الختام لهذا الموقف العصيب، فبعد العرض والحساب والوزن والميزان والفصل والقضاء يكون الجزاء والثواب أو العقاب ويحشر الكفار إلى جهنم أولاً ثم المتقون إلى جنان الخلد:

حشر الكفار إلى جنهم وبئس القرار

{وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً (٩٧)}[الإسراء:٩٧] هذا أبلغ تعبير وأصدق تصوير لكيفية حشر الكفار إلى جهنم يحشرون عمياً وبكماً وصماً وهى صورة من صور حشرهم نزيدها توضيحاً وبياناً في الفقرة التالية:

لقد جاءت نصوص كثيرة تصور لنا كيف يكون حشر الكفار إلى النار هم وآلهتهم التي كانوا يعبدونها:

١- فمن ذلك أنهم يحشرون كقطعان الماشية جماعات جماعات، ينهرون نهراً غليظاً، ويصاح بهم من هنا وهناك، كما يفعل الراعي ببقره أو غنمه (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا) [الزمر: ٧١]، (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا) [الطور: ١٣]، وقال: (وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) [فصلت: ١٩]. ومعنى يوزعون أي يجمعون، تجمعهم الزبانية على آخرهم، كما يفعل البشر بالبهائم.وكما وضحت ذلك تلكم الآية{ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً (٨٦)}[مريم:٨٦].

٢- وأفادت النصوص أنهم يحشرون إلى النار على وجوههم، لا كما كانوا يمشون في الدنيا على أرجلهم، قال تعالى: (الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا) [الفرقان: ٣٤].

روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك أن رجلاً قال: يا رسول الله، كيف

يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: " أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة " قال قتادة: بلى وعزة ربنا[1].

ومع حشرهم على هذه الصورة المنكرة على وجوههم فإنهم يحشرون عمياً لا يرون، وبكماً لا يتكلمون، وصماً لا يسمعون (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا) [الإسراء: ٩٧].

٣- ويزيد بلاءهم أنهم يحشرون مع آلهتهم الباطلة وأعوانهم وأتباعهم (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ -مِن دُونِ اللَّهِ- فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ) [الصافات: ٢٢-٢٣].

٤- وهم في هذا مغلوبون مقهورون أذلاء صاغرون (قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) [آل عمران: ١٢].

٥- وقبل أن يصلوا إلى النار تصك مسامعهم أصواتها التي تملأ قلوبهم رعباً وهلعاً (إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا) [الفرقان: ١٢].

٦- وعندما يبلغون النار ويعاينون أهوالها يندمون ويتمنون العودة إلى الدنيا كي يؤمنوا (وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) [الأنعام: ٢٧]، ولكنهم لا يجدون من النار مفراً: (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا) [الكهف:٥٣].

٧- وعند ذلك يؤمرون بالدخول في النار وغضب الجبار أذلاء خاسرين (فَادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) [النحل: ٢٩]، ولا ينجو من النار من الجن والإنس إلا الأتقياء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، واتبعوا

(١)رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب الحشر، فتح الباري: (٣٧٧/١١)، ومسلم: (٢١٦١/٤)] ورقمه: (٢٨٠٦). واللفظ لمسلم.

ما أنزل إليهم من ربهم (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا – ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا – ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا – وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا – ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا) [مريم: ٦٨-٧٢].

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات: " يقسم الله بنفسه وهو أعظم قسم وأجله أنهم سيحشرون بعد الموت، فهذا أمر مفروغ منه (فوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُم) [مريم: ٦٨]، ولن يكونوا وحدهم (لنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ) [مريم: ٦٨] فهم والشياطين سواء، والشياطين هم الذين يوسوسون بالإنكار، وبينهما صلة التابع والمتبوع، والقائد والمقود..

وهنا يرسم صورة حسية وهم جاثون حول جهنم جثو الخزي والمهانة، (ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا) [مريم: ٦٨]، وهي صورة رهيبة، وهذه الجموع التي لا يحصيها العد محشورة محضرة إلى جهنم جاثية حولها، تشهد هولها، ويلفحها حرها، وتنتظر في كل لحظة أن تؤخذ فتلقى فيها، وهم جاثون على ركبهم في ذلة وفزع..، وهو مشهد ذليل للمتجبرين المتكبرين، يليه مشهد النزع والجذب لمن كانوا أشد عتواً وتجبراً: (ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا) [مريم: ٦٩]، وفي اللفظ تشديد، ليرسم بظله وجرسه صورة لهذا الانتزاع، تتبعها صورة القذف في النار، وهي الحركة التي يكملها الخيال. وإن الله ليعلم من هم أولى بأن يصلوها، فلا يؤخذ أحد جزافاً من هذه الجموع التي لا تحصى، والتي أحصاها الله فرداً فرداً: (ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا) [مريم:٧٠]، فهم المختارون ليكونوا طليعة المقذوفين "[1].

(١)في ظلال القرآن: (٤/٢٣١٧).

ومما لا شك فيه أن هذا الحشر قبل أن يضرب الصراط وهذا ما وضحته لنا الأحاديث الصحيحة التي ثبتت عن رسول الله ﷺ روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: " إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر، وغبَّر[1] أهل الكتاب. فيدعى اليهود، فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزيز ابن الله. فيقال: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد. فماذا تبغون؟ قالوا: عطشنا يا ربنا، فاسقنا. فيشار إليهم: ألا تردون؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً، فيتساقطون في النار.

ثم يدعى النصارى، فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال لهم: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فيقال لهم: ما تبغون؟ فيقولون: عطشنا، يا ربنا فاسقنا، قال: فيشار إليهم: ألا تردون؟ فيحشرون إلى جهنم كأنهم سراب، يحطم بعضها بعضاً، فيتساقطون في النار. حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر، أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة من التي رأوه فيها، قال: فماذا تنتظرون؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد. قالوا: يا ربنا، فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم، ولم نصاحبهم، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، لا نشرك بالله شيئاً (مرتين أو ثلاثاً) حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب. فيقول: هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، فيكشف عن ساق، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجد اتقاءً ورياءً إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خرَّ على قفاه،

(١)غبرهم: بقاياهم.

ثم يرفعون رؤوسهم، وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة، فقال: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا. (١)

لقد حُشر كل من يعبد غير الله إلى جهنم وبئس القرار ولم يبق على أرض المحشر إلا الموحدون ومن أجلهم يضرب الصراط على ظهر جهنم وهو موضوع الفقرة التالية:

الصراط: وفيه نقاط عدة:

تعريف الصراط

ما ورد فيه من آيات وأحاديث

معتقد أهل السنة والفرق المختلفة في الصراط:

تعريف الصراط وحقيقته:

يعتبر الصراط معلماً من معالم يوم القيامة، وأحد مشاهدها العظام فبعد أن تمر مواقف الحساب بما فيها وبعد العرض والميزان، وشهادة الشهود وتطاير الصحف. وتمايز العباد إلى فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير.

بعد ذلك كله يضرب الصراط وينصب على ظهراني جهنم كي يجتاز الناس عليه في طريقهم إلى جنات الخلد، وإلى بلاد الأفراح فهو الطريق الوحيد الموصل إلى جنان الخلد، ولا طريق للعباد سواه، فما هو الصراط؟ وما هي حقيقته؟ وهل كل الناس تمر من فوق هذا الصراط؟ تساؤلات كثيرة نحاول الإجابة عنها في الفقرات التالية:

حقيقة الصراط:

قال السفاريني: [الصراط في اللغة الطريق الواضح .ومنه قول جرير:

(١)رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، (١٦٧/١)، ورقمه: (١٨٣).

أمير المؤمنين على الصراط**** إذا اعوج الموارد مستقيم

وفي الشرع: جسر ممدود على متن جهنم، يرده الأولون والآخرون، فهو قنطرة تمر من فوق النار ليصل المؤمنون عن طريقها إلى الجنة].

الصراط في ضوء الكتاب والسنة

لقد تضافرت آيات القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة على إثبات حقيقة هذا الصراط، وبينت كيف يكون المرور عليه في يوم القيامة، فمن القرآن الكريم نجد هذه الآيات:﴿وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ* وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلاَ يَرْجِعُونَ﴾ [يس:٦٦-٦٧]. وفيها النص الصريح على إثبات حقيقته ووصف لحالة فريق من الناس عند محاولة العبور والمرور عليه.

- ونجد آيات من سورة الحديد وهي ترسم لنا صورة لقافلة الإيمان في المقدمة أثناء لحظات العبور والاجتياز ومن خلفها قافلة النفاق وقد أغلق الطريق في وجهها: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ. يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ. فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[الحديد:١٢-١٤].

- وقوله تعالى ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا* ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَواْ وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً﴾ [مريم: ٧١-٧٢]. وفي هذه الآيات صورة موجزة للمرور من على الصراط، فهي تبين بأن الجميع واردها فالكفار قد دخلوها

من قبل أما المؤمنون فقد مروا من فوق ظهرها ونجاهم الله منها.

وما جاء مجملاً في كتاب الله –سبحانه– جاء تفصيله وبيانه في أحاديث كثيرة من أحاديث رسول الله ﷺ منها:

١–روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: " إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر، وغبَّر[١] أهل الكتاب. فيدعى اليهود، فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزيز ابن الله. فيقال: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد. فماذا تبغون؟ قالوا: عطشنا يا ربنا، فاسقنا. فيشار إليهم: ألا تردون؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً، فيتساقطون في النار.

ثم يدعى النصارى، فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال لهم: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فيقال لهم: ما تبغون؟ فيقولون: عطشنا، يا ربنا فاسقنا، قال: فيشار إليهم: ألا تردون؟ فيحشرون إلى جهنم كأنهم سراب، يحطم بعضها بعضاً، فيتساقطون في النار. حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر، أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة ن التي رأوه فيها، قال: فماذا تنتظرون؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد. قالوا: يا ربنا، فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم، ولم نصاحبهم، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، لا نشرك بالله شيئاً (مرتين أو ثلاثاً) حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب. فيقول: هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، فيكشف عن ساق، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجد اتقاءً ورياءً إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خرَّ على قفاه،

(١)غبرهم: بقاياهم.

ثم يرفعون رؤوسهم، وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة، فقال: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا.ثم يضرب الجسر على جهنم، وتحل الشفاعة، ويقولون: اللهم سلم سلم.

قيل: يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: دحض مزلة، فيه خطاطيف وكلاليب وحسك، تكون بنجد فيها شويكة يقال لها: السعدان، فيمر المؤمنون كطرف العين، وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلم، ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم"[1].

٢-روى مسلم أيضاً عن أبي هريرة في وصف المرور على الصراط، قال: قال رسول الله ﷺ: " وترسل الأمانة والرحم، فتقومان على جنبتي الصراط يميناً وشمالاً، فيمر أولكم كالبرق، قال: قلت: بأبي أنت وأمي، أي شيء كالبرق؟ قال: ألم تروا إلى البرق كيف يمرُّ ويرجع في طرفة عين؟ ثم كمرّ الريح، ثم كمرِّ الطير وشدِّ الرجال، تجري بهم أعمالهم، ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب، سلم سلم. حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً، قال: وعلى حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به. فمخدوش ناج، ومكدوس في النار "[2].

٣-روى مسلم في صحيحه عن أبي الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله يسأل عن الورود، فقال: " نجيء نحن يوم القيامة عن كذا وكذا[3] انظر إلى ذلك فوق الناس، قال: فتدعى الأمم بأوثانها، وما كانت تعبد، الأول فالأول، ثم يأتينا ربنا بعد

---

(١)رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، (١٦٧/١)، ورقمه: (١٨٣.

(٢)رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة، (١٨٧/١)، ورقمه:(١٩٥).

(٣)يقول ابن رجب في تعليقه على هذه اللفظة من الحديث: " أصل هذه اللفظة تصحيف من الراوي للفظ (كوم)، فكتب عليه كذا وكذا لإشكال فهمه عليه، ثم كتب انظر إلى ذلك، يأمر الناظر فيه بالتروي والفكر في صحة لفظه، فأدخل ذلك كله في الرواية قديماً " التخويف من النار: ص ١٩٩، وقد ذكر أن الصواب كما جاء في المسند وكتاب السنة: " نحن يوم القيامة على كوم فوق الناس، فتدعى الأمم بأوثانها.. ".

ذلك فيقول: من تنظرون؟ فيقولون: ننظر ربنا، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: حتى ننظر إليك، فيتجلى لهم يضحك.قال: فينطلق بهم ويتبعونه، ويعطى كل إنسان منهم، منافق أو مؤمن نوراً، ثم يتبعونه، وعلى جسر جهنم كلاليب وحسك، تأخذ من شاء الله ثم يطفأ نور المنافقين، ثم ينجو المؤمنون أول زمرة وجوههم كالقمر ليلة البدر، سبعون ألفاً لا يحاسبون، ثم الذين يلونهم كأضوأ نجم في السماء.. "[1].

٤-روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال في إجابته للصحابة عندما سألوه عن رؤيتهم الله: " هل تُضارُّون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله.

قال فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك، يجمع الله الناس، فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا أتانا ربنا عرفناه، فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه، ويضرب جسر جهنم، قال رسول الله ﷺ: " فأكون أول من يجيز، ودعاء الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم، وبه كلاليب مثل شوك السعدان، أما رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: فإنها مثل شوك السعدان، غير أنها لا يعلم قدر عظمها إلا الله، فتخطف الناس بأعمالهم، منهم الموبق بعمله، ومنهم المخردلُ، ثم ينجوا.. "[2].

---

(١)رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة: (١/١٧٥)، ورقمه: (١٩١).

(٢)رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، فتح الباري: (١١/٤٤٤) ورقمه: ٨٠٦، ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، (١/١٦٣) ورقم الحديث (١٨٢)، واللفظ للبخاري.

٥-وبوب عليه البخاري رحمه الله في كتاب الرقاق من صحيحه فقال: بابٌ: الصراط جسر جهنم.

٦-وفي صحيح مسلم أيضاً عن أبي هريرة في وصف المرور على الصراط - قال: قال رسول الله ﷺ: «وترسل الأمانة والرحم، فتقوم على جَنبَتي الصراط يميناً وشمالاً، فيمر أولكم كالبرق، قال: قلت: بأبي أنت وأمي أي شيء كالبرق؟ قال: ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين؟ ثم كَمَرِّ الريح، ثم كَمَرِّ الطير وشد الرحال، تجري بهم أعمالهم، ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب سلِّم سلِّم، حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيئ الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً، قال: وعلى حافتي الصراط كلاليب معلقة، مأمورة بأخذ من أمرت به، فمخدوش ناج، ومكدوس في النار»[1].

٧- روى البيهقي بسنده عن مسروق، عن عبد الله، قال: " يجمع الله الناس يوم القيامة " إلى أن قال: " فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه، حتى يكون آخر من يعطى نوره في إبهام قدمه، يضيء مرة ويطفأ أخرى، إذا أضاء قدم قدمه، وإذا أطفأ قام، قال: فيمر ويمرون على الصراط، والصراط كحد السيف دحض مزلة، ويقال لهم: امضوا على قدر نوركم، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كشد الرجل، يرمل رملاً على قدر أعمالهم، حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه، تخر يد، وتعلق يد، وتخر رجل وتعلق رجل، وتصيب جوانبه النار، فيخلصون فإذا خلصوا، قالوا: الحمد لله الذي نجانا منك، بعد أن أرانا، لقد أعطانا

(١) «صحيح مسلم» رقم (١٩٥)، كتاب الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلةً فيها.

ما لم يعط أحد "[1].

شدة الفزع عند المرور على الصراط:

وإن للمرور على الصراط لهول وكرب وشدة لا يعلم مقدارها إلا الله تعالى يصورها القرطبي رحمه الله تعالى فيقول: تفكر الآن فيما يحل بك من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها، وقد كلفت أن تمشي على الصراط، مع ضعف حالك واضطراب قلبك، وتزلزل قدمك، وثقل ظهرك بالأوزار، المانعة لك من المشي على بساط الأرض، فضلاً عن حدة الصراط. فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك، فأحسست بحدته، واضطررت إلى أن ترفع قدمك الثاني، والخلائق بين يديك يزلون، ويعثرون، وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب، وأنت تنظر إليهم كيف ينكسون إلى جهة النار رؤوسهم وتعلوا أرجلهم فيا له من منظر ما أفظعه، ومرتقى ما أصعبه، ومجاز ما أضيقه [2]".

وقال أيضاً: " فتوهم نفسك – يا أخي – إذا صرت على الصراط، ونظرت إلى جهنم تحتك سوداء مظلمة، قد لظى سعيرها، وعلا لهيبها، وأنت تمشي أحياناً، وتزحف أخرى.

وقد دلت هذه النصوص الصحيحة الصريحة الواضحة على عدة أمور مهمة منها:

-أن حشر الكفار إلى النار بعد انتهاء العرض والحساب والوزن والميزان

(١)قال الشيخ ناصر في تخريجه لأحاديث شرح الطحاوية: (٤٧٠): (صحيح، وأخرجه الحاكم، وأظن أن البيهقي من طريقه رواه، وقال الحاكم: (صحيح على شرح الشيخين) ووافقه الذهبي وبين الشيخ أن أحد رواته فيه ضعف، ثم هو مدلس، لكنه توبع، وصرح بالتحديث، فالحديث صحيح.

(٢)التذكرة للقرطبي : ٣٣٢ .

يحشر الكفار إلى جهنم على وجوههم عمياً وبكماً وصماً، ومعنى ذلك أنهم لا يمرون على الصراط أو يحشرون إلى جهنم من خلاله.

– أن الصراط عبارة عن جسر وطريق للعبور من فوق جهنم لا يصل أهل الجنة إليها إلا من خلال هذا الجسر، ولا طريق يوصل إلى الجنة من أرض المحشر سواه، وهو معنى قول الله –سبحانه– {وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا}[مريم: ٧١].

–أن اجتياز هذا الجسر والمرور والعبور عليه ليس بالأمر الهين، فهو أدق من الشعرة، وأحد من السيف، وعلى جوانبه كلاليب معلقة مثل الأشواك، تتخطف من أمرت بخطفه الناس من فوق هذا الجسر، لتلقي بهم في قاع جهنم، ومن الناس من تجرحه وتصيبه وينجو فلا يهوي إلى القاع، ومنهم من يكدس وينكس على رأسه في جهنم.

– اجتمع مع دقة هذا الطريق وضيقه وحدته الظلمة الشديدة. تلك التي أشار إليها الحديث (هم في الظلمة دون الجسر)[1]فيتغمد الله عباده المؤمنين بسابغ فضله ورحمته، فيعطيهم أنواراً يسعون في خلالها ويمشون في هديها، تلك التي جاءت إليها الإشارة في قوله –سبحانه–: {يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم}[الحديد:١٢]وتكون هذه الأنوار على قدر الإيمان، فمن الناس من يكون نوره كنور الشمس أو نور القمر أو ما دون ذلك حتى يكون آخرهم من يُعطى نوراً كضوء شمعة على إبهام قدمه يضيء تارة فيتقدم وينطفئ تارة فلا يتحرك من موضعه.

– النجاة من المخاطر فوق هذا الصراط على قدر الإيمان والصلاح والتقوى فكلما زاد الإيمان واليقين والعمل الصالح كان المرور أسرع، حتى إن فريقاً من

(١)صحيح مسلم، كتاب الحيض، باب بيان صفة مني الرجل والمرأة، (٢٥٢/١) ورقمه (٣١٥) .

المؤمنين يمر بسرعة الضوء وتتناقص السرعة بنقص الإيمان فمنهم من يمر كجرى الفرس أو كجري الرجل أو كمشيه، إلى أن يمر آخرهم زحفاً يقف تارة وينكب على وجهه تارة أخرى.

-حرص الأنبياء على نجاة أممهم وهم ويمرون في هذا الطريق الخطر حتى إنهم يقفون على جنبات هذا الطريق وعلى رأسهم النبي ﷺ ودعاؤهم في هذا الموقف اللهم سلم سلم[1].

- إذا كان حشر الكفار والمشركين إلى جهنم قبل أن يضرب الجسر على ظهراني جهنم، فإن حشر المنافقين إلى النار بعد أن يضرب هذا الجسر فهم يحاولون عبوره واجتيازه، ولكن أنَّى لهم هذا فقد حيل بينهم وبين ذلك بذهاب نورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون، فلما حاولوا أن يلحقوا بقافلة المؤمنين ليقتبسوا من ضوء نورهم ما يمكنهم من المرور ضُرب بينهم بسور له باب كان بمثابة سد أغلق الطريق أمامهم إغلاقاً تاماً فما عاد يسمح لهم بالسير فيه لا طيراً ولا مشياً ولا زحفاً، فلقد مضى زمن العبور وأغلق هذا الطريق، ولأهمية ذلك خصصنا له فقرة خاصة تحت عنوان:

فضرب بينهم بسور له باب.

{قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً} هذا هو حال المنافقين، وذلك بعد حشر الكفار إلى جهنم، فما بقي في عرصات القيامة إلا أتباع الرسل من الموحدين، وفيهم أهل الذنوب والمعاصي، وفيهم أهل النفاق كذلك، فلابد من تميز بين الصفوف ولكن كيف والكفار قد ألقى بهم في نار جهنم حينئذ تُلقى عليهم الظلمة قبل الجسر كما في الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن عائشة قالت: سئل الرسول ﷺ: أين

(١)رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، (١٦٧/١)، ورقمه: (١٨٣.

يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال: " هم في الظلمة دون الجسر ".

إن هذه الظلمة. التي غشيتهم قد غطت على كل شيء وهم يستبقون إلى الصراط وهو دحضة مزلة وأدق من الشعرة وأحد من السيف فكيف العبور عليه حينئذ هنا يعطى العباد نوراً على قدر أعمالهم فهم يعبرون في ضوء نورهم.

يقول شارح الطحاوية[1]: " وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين، ويتخلفون عنهم، ويسبقهم المؤمنون، ويحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم".

وقد حدثنا الحق تبارك وتعالى عن مشهد مرور المؤمنين على الصراط، فقال: (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ – يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ – يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ – فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) [الحديد: ١٢-١٥].

فالحق يخبر أن المؤمنين والمؤمنات الذين استناروا بهذا الدين العظيم في الدنيا، وعاشوا في ضوئه، يعطون في يوم القيامة نوراً يكشف لهم الطريق الموصلة إلى جنات النعيم، ويجنبهم العثرات والمزالق في طريق دحض مزلة، وهناك يبشرون بجنات النعيم، ويحرم المنافقون الذين كانوا يزعمون في الدنيا أنهم مع المؤمنين، وأنهم منهم، لكنهم في الحقيقة مفارقون لهم لا يهتدون بهداهم، ولا

(١)شرح الطحاوية: ص ٤٧٠.

يسلكون سبيلهم من النور، كما حرموا أنفسهم في الدنيا من نور القرآن العظيم، فيطلب المنافقون من أهل الإيمان أن ينتظروهم ليستضيئوا بنورهم، وهناك يخدعون، كما كانوا يخدعون المؤمنين في الدنيا، ويقال لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً، وبذلك يعود المنافقون إلى الوراء، ويتقدم المؤمنون إلى الأمام، فإذا تمايز الفريقان، ضرب الله بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، ويكون مصير المؤمنين والمؤمنات الجنة، ومصير المنافقين والمنافقات النار.

وقد أخبر الحق أن دعاء المؤمنين عندما يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم هو (ربنا أتمم لنا نورنا)، قال تعالى: (يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [التحريم: ٨].قال مجاهد والضحاك والحسن البصري وغيرهم: هذا يقوله المؤمنون حين يرون يوم القيامة نور المنافقين قد طُفئ "[1].

ويصف صاحب الظلال هذا الموقف فيقول: والمشهد هنا بإجماله وتفصيله جديد بين المشاهد القرآنية، وهو من المشاهد التي يحييها الحوار، بعد أن ترسم صورتها المتحركة رسماً قوياً.

فنحن الذين نقرأ القرآن اللحظة نشهد مشهداً عجيباً. هؤلاء هم المؤمنون والمؤمنات نراهم. ولكننا نرى بين أيديهم وبأيمانهم إشعاعاً لطيفاً هادئاً. ذلك نورهم يشع منهم ويفيض بين أيديهم. فهذه الشخوص الإنسانية قد أشرقت وأضاءت وأشعت نوراً يمتد منها فيرى أمامها ويرى عن يمينها.. إنه النور الذي أخرجها الله إليه وبه من الظلمات إلى النور. والذي أشرق في أرواحها فغلب على طينتها. أم لعله النور

(١)تفسير ابن كثير: ٦١/٧. وانظر في هذه المباحث القيامة الكبرى د. عمر سليمان الأشقر

الذي خلق الله منه هذا الكون وما فيه ومن فيه، ظهر بحقيقته في هذه المجموعة التي حققت في ذواتها حقيقتها !

ثم ها نحن أولاء نسمع ما يوجه إلى المؤمنين والمؤمنات من تكريم وتبشير ﴿بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم﴾ ولكن المشهد لا ينتهي عند هذا المنظر الطريف.. إن هناك المنافقين والمنافقات في حيرة وضلال، وفي مهانة وإهمال. وهم يتعلقون بأذيال المؤمنين والمؤمنات يشع ذلك النور اللطيف الشفيف. ولكن أنى للمنافقين أن يقتبسوا من هذا النور وقد عاشوا حياتهم كلها في الظلام؟ إن صوتاً مجهلاً يناديهم: ﴿قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً﴾.. ويبدو أنه صوت للتهكم والتذكير بما كان منهم في الدنيا من نفاق ودس في الظلام: ارجعوا وراءكم إلى الدنيا. إلى ما كنتم تعملون. ارجعوا فالنور يلتمس من هناك. من العمل في الدنيا. ارجعوا فليس اليوم يلتمس النور.

وعلى الفور يفصل بين المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات. فهذا يوم الفصل إن كانوا في الدنيا مختلطين في الجماعة: ﴿فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾.. ويبدو أنه سور يمنع الرؤية ولكنه لا يمنع الصوت. فها هم أولاء المنافقون ينادون المؤمنين: ﴿ألم نكن معكم﴾.. فما بالنا نفترق عنكم؟ ألم نكن معكم في الدنيا نعيش في صعيد واحد ﴿قالوا بلى !﴾ كان الأمر كذلك. ﴿ولكنكم فتنتم أنفسكم﴾.. فصرفتموها عن الهدى. ﴿وتربصتم﴾.. فلم تعزموا ولم تختاروا الخيرة الحاسمة. ﴿وارتبتم﴾.. فلم يكن لكم من اليقين ما تعزمون به العزمة الأخيرة. ﴿وغرتكم الأماني﴾ الباطلة في أن تنجوا وتربحوا بالذبذبة وإمساك العصا من طرفيها ! ﴿حتى جاء أمر الله﴾ وانتهى الأمر ﴿وغركم

بالله الغرور﴾.. وهو الشيطان الذي كان يطمعكم ويمنيكم.[1]

من تتمة هذا المبحث: بيان معتقد أهل السنة والفرق المختلفة في الصراط:

بين شارح الطحاوية معتقده في الصراط المذكور في الأحاديث فقال: ونؤمن بالصراط وهو جسر على جهنم إذا انتهى الناس بعد مفارقتهم الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط، كما قالت عائشة رضي الله عنها: إن رسول اللهﷺ سئل: أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال: (هم في الظلمة دون الجسر)[2].

وقد بين السفاريني رحمه الله تعالى موقف الفرق من الصراط وهل هو صراط مجازي أم حقيقي؟ فقال: اتفقت الكلمة بالجملة على إثبات الصراط في الجملة، لكن أهل الحق يثبتونه على ظاهره، من كونه جسرا ممدودا على متن جهنم، أحد من السيف وأدق من الشعر.

وأنكر هذا الظاهر القاضي عبدالجبار المعتزلي، وكثير من أتباعه زعماً منهم أنه لا يمكن عبوره وإن أمكن ففيه تعذيب، ولا عذاب على المؤمنين والصلحاء يوم القيامة، وإنما طريق الجنة المشار إليه بقوله تعالى ﴿سيهديهم ويصلح بالهم﴾، وطريق النار المشار إليه بقوله تعالى ﴿فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾.

ومنهم من حمله على الأدلة الواضحة والمباحات والأعمال الرديئة التي يسأل عنها ويؤاخذ بها، وكل هذا باطل وخرافات لوجوب حمل النصوص على حقائقها، وليس العبور على الصراط بأعجب من المشي على الماء أو الطيران في الهواء، أو الوقوف فيه، وقد أجاب عليه الصلاة والسلام عن سؤال حشر الكافر على وجهه بأن

(١) في ظلال القرآن. سيد قطب ٣٤٨٥/٦ ط دار الشروق.
(٢) مسلم. كتاب الحيض. حديث رقم ٤٧٣.

القدرة صالحة لذلك. وأنكر العلامة القرافي كون الصراط أدق من الشعر وأحد من السيف، وسبقه إلى ذلك شيخه العز بن عبد السلام.

والحق أن الصراط وردت به الأخبار الصحيحة، وهو محمول على ظاهره بغير تأويل كما ثبت في الصحيحين والمسانيد والسنن والصحاح، مما لا يحصى إلا بكلفة من أنه جسر مضروب على متن جهنم يمر عليه جميع الخلائق، وهم في جوازه متفاوتون[1].

العقبة الأخيرة:

ترى هل كان اجتياز الصراط هو العقبة الأخيرة في طريق المؤمنين إلى جنان الخلد كلا ما زالت أمامهم عقبة حتى يدخلوها بقى منها رد المظالم بين العباد ولذلك فتراهم يحبسون على قنطرة بين الجنة والنار بحث أهل العلم هذه المسألة ضمن حديثهم عن القنطرة التي يوقف عليها المسلمون قبل دخولهم الجنة[2].

والقنطرة في اللغة: الجسر[3]، وهي موضع يوقف فيه المؤمنون الذين جاوزوا الصراط ونجوا من النار لأجل أن يقتص لبعضهم من بعض قبل أن يدخلوا الجنة، وهذا بمثابة التطهير الكامل لقلوبهم عن أن يبقى فيها شيء من الغلِّ أو الحقد أو البغضاء، ومن مقتضى هذا القصاص في هذا الموضوع أن يزيل كل ما في القلوب من غلٍّ وغيره، فيصيرون بذلك متهيئين لدخول الجنة، التي قال الله عن أهلها: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ}[الحجر: ٤٧].

ثبت في «صحيح البخاري» وغيره عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول

(١)موقع المأوى على شبكة المعلومات الدولية. www.almawa.net. موضوع حقيقة الصراط.

(٢) ينظر: «العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وشرحها: «الروضة الندية» (ص٣٤٠) لشيخنا العلامة زيد الفياض رحمه الله.

(٣) انظر: «القاموس المحيط»، و «لسان العرب».

الله ﷺ: «يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونقوا، أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده، لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا»[1].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في شرحه هذا الحديث[2]:

قوله ﷺ: «إذا خلص المؤمنون في النار» أي نجو من السقوط فيها بعدما جازوا على الصراط، وفي اللفظ الآخر: «إذا خلص المؤمنون من جسر جهنم».

قال الحافظ القرطبي: إن هؤلاء الذين يحبسون في القنطرة هم المؤمنون الذين علم الله أن القصاص لا يستنفذ حسناتهم. وقال الحافظ ابن حجر – معقبًا على القرطبي – رحمه الله: ولعلَّ أصحاب الأعراف منهم على القول المرجح آنفًا، وخرج من هذا صنفان من المؤمنين: الأول: من دخل الجنة بغير حساب. والثاني: من أوبقه عمله.

وقوله ﷺ: «يحبسون على قنطرة بين الجنة والنار». قد تقدم أن الصراط جسرٌ موضوع على متن جهنم وأن الجنة وراء ذلك، فيمر عليه الناس بحسب أعمالهم، فمنهم الناجي وهو من زادت حسناته على سيئاته أو استويا أو تجاوز الله عنه، ومنهم الساقط وهو من رجحت سيئاته على حسناته إلاَّ من تجاوز الله عنه، فالساقط من الموحدين يُعذب ما شاء الله، ثم يُخرج بالشفاعة وغيرها، والناجي قد يكون عليه تبعات وله حسنات توازيها أو تزيد عليها فيؤخذ من حسناته ما يعدل تبعاته فيخلص منها.

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٤٤٠) كتاب المظالم، باب: قصاص المظالم، وبرقم (٦٥٣٥) في كتاب الرقاق، باب: القصاص يوم القيامة.

(٢) ينظر: «فتح الباري» (٣٩٧/١١)، (٩٦/٥).

واختلف في القنطرة المذكورة، فقيل: هي من تتمة الصراط، وهي طرفه الذي يلي الجنة، وقيل: إنهما صراطان وبهذا الثاني جزم القرطبي[1].

وقوله ﷺ: «فيتقاصُّون مظالم كانت بينهم في الدنيا» المراد تتبع ما بينهم من المظالم وإسقاط بعضها ببعض، ولذا قال: «حتى إذا نُقُّوا وهُذِّبوا أذن لهم بدخول الجنة» والمعنى أنهم إذا خلصوا من الآثام بمقاصة بعضها ببعض، ويشهد لهذا الحديث قوله في حديث جابر: «لا يحل لأحدٍ من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحدٍ قِبَلَه مظلمة».اهـ شرح الحافظ ابن حجر رحمه الله ملخصًا.

ولسماحة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين نفع الله به، لفتة لطيفة عند قوله ﷺ: «فيقص لبعضهم من بعض» حيث قال: «وهذا القصاص غير القصاص الأول الذي في عرصات القيامة، لأن هذا قصاصٌ أخص؛ لأجل أن يذهب الغل والحقد والبغضاء التي في قلوب الناس، فيكون هذا بمنزلة التنقية والتطهير، وذلك لأن ما في القلوب لا يزول بمجرد القصاص، فهذه القنطرة التي بين الجنة والنار، لأجل تنقية ما في القلوب، حتى يدخلوا الجنة، وليس في قلوبهم غل، كما قال الله تعالى: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ}[الحجر: ٤٧].[2]

ما بقي أمام وفد الرحمن بعد أن نُقوا وهُذِّبوا من كل الخطايا والآثام إلا أن يدخلوا جنان الخلد فيأتوها ولقد صور هذا المشهد الرائع تلك الآيات من سورة الزمر حيث يقول فيها -سبحانه-: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ* وَقَالُوا

(١) ومال إليه الحافظ ابن حجر أيضًا (٩٦/٥).

(٢) (١٦٣/٢-١٦٤)، دار ابن الجوزي بتحقيق سعد بن فواز الصميل.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ* وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }[الزمر:٧٣-٧٥].

إنه مشهد الختام المتقون في جنان الخلد والكفار في نار جهنم والملائكة حافة حول العرش بتسبيحها وحمدها لرب الأرض والسماء وبهذا المشهد نختم هذا البحث على وعد بلقاء في بحث آخر حول بلاد الأفراح جنان الخلد وما فيها والنار وما أعد للكافرين فيها. والحمد لله أولاً وآخراً.

الفهارس

المقدمة ٤٥
مدخل: في بيان جانب من أسماء يوم القيامة: ٤٩
بداية الأحداث: النفخ في الصور: ٥٤
النفخ في الصور: ٥٥
الآيات والأحاديث التي تثبت أمر النفخ في الصور: ٥٦
هل هما نفختان أو أكثر: ٥٨
النفخة الأولى وآثارها ونتائجها: ٦١
في أي يوم تقوم الساعة ٦٩
ما بين النفختين: ٧٠
آثار النفخة الأولى: ٧٢
-اختلال نظام الكون وانفراط عقده ٧٣
رسم صورة متكاملة للأحداث من خلال عبارات المفسرين ٧٦
تصوير صاحب الظلال للأحداث: ٧٦
تصوير القرطبي لأهوال يوم القيامة ٧٩
النفخة الثانية – نفخة البعث {ثم نفخ في أخرى فإذاهم قيام ينظرون}: ٨٣
فإذاهم قيام ينظرون: ٨٤
أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ٨٥
جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة: ٨٦
أول من يكسى ٨٧
الأرض التي يحشر إليها الخلق يوم القيامة ٩٠

نظرة على حال العباد فوق أرض المحشر: ٩٣
كرب لا يُحتمل وهم وغم لا يُطاق ٩٤
أحمال وأثقال تنوء بحملها الجبال الراسيات..... ٩٥
شمس حارقة وعرق يغرق الأقوام ٩٧
نسائم الرحمات ٩٨
- لا يحزنهم الفزع الأكبر..... ٩٨
-ظل عرش الرحمن والجديرون به..... ١٠٠
الحوض..... ١٠٢
موضع ومكان الحوض: ١٠٣
الذين يردون الحوض والذين يُذادون عنه..... ١٠٦
الشفاعة العظمى ١٠٩
الشفاعة: ١٠٩
أنواع الشفاعة..... ١١٠
الشفاعة العظمى: ١١٠
وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء ١١٤
ساحة العرض والفصل والقضاء:..... ١١٧
- القواعد التي يتم على أساسها حساب العباد يوم القيامة: ١١٧
الأعمال التي يحاسب عليها العباد في يوم القيامة ١٢٢
حجة الله البالغة ١٢٦
١- شهود الإثبات: ١٢٦
٢- الصحائف والسجلات..... ١٣٢
مشهد من مشاهد العرض والحساب ١٣٣

١- فرحة وسرور أوحسرة وندامة: ١٣٤
٢- ستر ومغفرة أو فضيحة وتنكيل ١٣٧
القصاص بين العباد ١٤٣
وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ لْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ١٤٦
اختلاف العلماء في الميزان ١٤٧
الأعمال التي تثقل الميزان ١٥٢
حساب الكفار في يوم القيامة: ١٥٣
هل يسأل الكفار؟ولماذا يسألون؟ ١٥٣
تصوير المحاسبي لأحداث يوم القيامة: ١٥٦
نهاية المطاف: ١٦١
حشر الكفار إلى جنهم وبئس القرار ١٦٢
الصراط: وفيه نقاط عدة: ١٦٦
تعريف الصراط وحقيقته: ١٦٦
حقيقة الصراط: ١٦٦
الصراط في ضوء الكتاب والسنة ١٦٧
فضرب بينهم بسور له باب. ١٧٤
من تتمة هذا المبحث: بيان معتقد أهل السنة والفرق المختلفة في الصراط: ١٧٨
العقبة الأخيرة: ١٧٩
الفهارس: ١٨٣

* * *